الدكتور صلاح الدين المنجد

المشرق

في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى

دار الكتاب الجديد

بيروت

الاهداء

الى أصدقائي
في تونس والمغرب واسبانية
تحية ودّ
وذكرى لأيام جميلة قضيتها في بلادهم

المنجد

المشرق
في نظر المغاربة والاندلسيين

الطبعة الأولى

١٩٦٣

المقدمة

اتيح لي ، في سنة ١٩٥٨ ، أن أزور المغرب الأقصى للبحث عن المخطوطات العربية . وقد تفضّلت يومئذ جمعية العلماء بفاس فدعتني الى القاء محاضرة في القرويين برعاية عميد جامعة الرباط صديقنا العلاّمة محمد الفاسي . فألقيت آنئذ حديثاً عن « دمشق في نظرة المغاربة والأندلسيين » .

ثم بدا لي أن أفصّل ما أوجزت . فتجمعت لديّ مادة وافرة كان منها الفصل الأول من هذا الكتاب .

وقد أغراني الموضوع ، بعدُ ، فانطلقتُ أبحث عن القاهرة وبغداد ، كيف نظر اليهما مَنْ زارهما من علماء المغرب والأندلس . فكان من ذلك الفصل الثاني ، والفصل الثالث .

وإن من المفيد حقاً أن نرى اليوم كيف كانت هذه المدن الثلاث في القرون الماضية ، في محاسنها وعيوبها ، وأن نحدّد ما أصابته ، وأصابه أهلوها ، من تقدّم وتطوّر في عصرنا هــذا .

كانت الرحلات المغربية والأندلسية المصدرَ الأول الذي

استقيتُ منه مادة هذه الفصول . وإذ كان الكثير منها مخطوطاً ، او مفرّقاً في ثنايا الكتب ، فإني أعتقد أن هذا الكتاب سيسدّ فراغاً في بحث الصلات بين المشرق والمغرب الاسلاميين .

وثمة نصوص ورحلات لمغاربة عاشوا بعد تولّي القرون الوسطى ، فاستطردتُ الى ذكر ما قالوه لأنه غنيّ بالملاحظة الدقيقة والفائدة .

وقد يكون هناك رحلات لمغاربة لم اطلع عليها ، على أني واثق أن النصوص الهامة قد استخدمت كلها .

وإذا كان هناك فضل في تأليفي هذا الكتاب فإنما يعود للمغرب ، ولعلماء فاس خاصة . ففي بلدهم الجميل ، الذي يشبه مدينتي الاولى دمشق ، بدأ الفصل الأول منه .

بيروت صلاح الدين المنجد

المصادر الاساسية

١ ـ رحلة ابن العربي ، (ابو بكر محمد بن عبدالله ، المتوفي ، سنة ٥٤٣ هـ)

وصل الينا منها نُتَف نقلها المقّري في نفح الطيب

٢ ـ نزهة الآفاق للادريسي (محمد بن محمد ، المتوفي سنة ٥٦٠ هـ)

منها مخطوطات كثيرة . ولم تطبع كلها طبعة كاملة . اعتمدنا على مخطوطة اكسفورد

٣ ـ رحلة بنيامين التطيلي (من القرن السادس الهجري)

كتبها بالعبرية ، ونقلها الى العربية عزرا حداد ، بغداد ١٩٤٥

٤ ـ الرسالة المصرية (لأمية بن عبدالعزيز الأندلسي ، المتوفي سنة ٥٢٧ هـ)

نشرها عبدالسلام هارون في نوادر المخطوطات .

٥ ـ المدبّجات للجلياني (عبدالمنعم بن عمر ، المتوفي سنة ٦٠٢ هـ)

منها مخطوطات كثيرة . اعتمدنا على مخطوطة الخالدي بالقدس

٦ ـ رحلة ابن جُبَيْر الأندلسي (محمد بن احمد ، المتوفي سنة ٦١٤ هـ)

اعتمدنا على نشرة حسين نصّار ، القاهرة ١٩٥٥

٧ ـ رحلة ابن سعيد المغربي (علي بن سعيد ، المتوفي سنة ٦٨٥ هـ)

وصل الينا أقسام منها في نفح الطيب

٨ ـ رسالة لعبدالرحمن بن محمد بن عبدالملك بن سعيد ، من القرن السابع)

حفظها لنا المقري في النفح

٩ ـ رحلة العبدري (محمد بن محمد بن علي ، المتوفي بعد سنة ٦٨٨ هـ)

منها مخطوطات عدّة . اعتمدنا على مخطوطة باريز

١٠ ـ رحلة ابن رشيد (محمد بن عمر ، المتوفي سنة ٧٢١ هـ)

واسمها : ملء العيبة .

منها مخطوطة في الاسكوريال ناقصة . اعتمدنا عليها .

١١ ـ رحلة البَلَوي (خالد بن عيسى ، المتوفي بعد سنة ٧٦٥ هـ) واسمها : تاج المفرق

منها مخطوطة في دار الكتب ، جغرافيا ٤٠٠ ، اعتمدنا عليها .

١٢ ــ رحلة ابن الحاج الغرناطي (ابراهيم عبدالله، المتوفي بعد سنة ٧٦٨ ﻫ)

حفظ لنا المقري قطعاً منها

١٣ ــ رحلة ابن بطوطة الطنجي (محمد بن ابراهيم، المتوفي سنة ٧٧٩ ﻫ) واسمها: تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار.

طبعت مرّات. اعتمدنا على طبعة صادر، بيروت ١٩٦٠

١٤ ــ نفح الطيب للمقرّي (احمد بن محمد، المتوفي سنة ١٠٤١ ﻫ)

طبع ثلاث مرات، اعتمدنا على نشرة محيي الدين عبدالحميد القاهرة في ١٠ أجزاء

١٥ ــ رحلة العيّاشي الفاسي (عبدالله بن محمد المتوفي سنة ١٠٩٠ ﻫ)

طبعت على الحجر بفاس في مجلدين سنة ١٣١٦ ﻫ

١٦ ــ رحلة محمد بيرم الخامس التونسي المتوفي سنة ١٣٠٧ ﻫ واسمها: صفوة الاعتبار بمستودع الامصار. طبعت في القاهرة سنة ١٣٠٢ ــ ١٣٠٣، في أربعة اجزاء، ثم طبع الخامس سنة ١٣١١ في مطبعة المقتطف.

٢ ـ المصادر المساعدة

١ ـ الصلة لابن بشكوال . طبعة العطّار ، القاهرة ١٩٥٥
٢ ـ تاريخ العلماء والرواة لابن الفرضي ، طبعة العطار ، القاهرة ١٩٥٤
٣ ـ قضاة قرطبة للخشني ، طبعة العطار ، القاهرة ١٣٧٢
٤ ـ الفكر الاندلسي لبلانثيا ، ترجمة حسين تونس . القاهـــرة
٥ ـ فضائل ودمشق للربعى . نشرة صلاح الدين المنجد . دمشق ١٩٥١
٦ ـ مختصر في الملاحم والفتن للتنوخي . مخطوطة الظاهرية ٦٢ أدب
٧ ـ فهرست ابن خير الاشبيلي ، سرقسطة ١٨٩٣
٨ ـ فتح المتعال في مدح النعال للمقري ، حيدر آباد
٩ ـ الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ، دمشق ١٩٤٨
١٠ ـ مسجد دمشق لصلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٤٨
١١ ـ الزيارات بدمشق للعدوي ، تحقيق المنجد ، دمشق ١٩٥٧

١٢ ـ مخطط دمشق القديمة لصلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٤٧
١٣ ـ الزيارات للهروي ، نشرة السيدة سورديل دمشق ١٩٥٤
١٤ ـ السلوك للمقريزي ، نشرة محمد مصطفى زيادة
١٥ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان . طبعة محيي الدين القاهرة
١٦ ـ تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (مخطوطة الظاهرية)
١٧ ـ البداية والنهاية لابن كثير ، طبعة القاهرة
١٨ ـ شذرات الذهب لابن العماد ، طبعة القاهرة
١٩ ـ ولاة دمشق في العهد السلجوقي لصلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٤٩
٢٠ ـ قطعة من كتاب مفقود : المسالك والممالك للمهلبي . نشرة صلاح الدين المنجد . القاهرة ١٩٥٨
٢١ ـ النهضة العلمية بدمشق أيام الايوبيين لمحمد احمد دهمان ، دمشق ١٩٤٤
٢٢ ـ بيمارستان نور الدين بدمشق لصلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٤٧
٢٣ ـ عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ، طبعة ملر ، القاهرة ١٢٩٩
٢٤ ـ فوات الوفيات لابن شاكر ، طبعة محيي الدين ، القاهرة ١٩٥١
٢٥ ـ معجم البلدان لياقوت ، طبعة وستنفلد
٢٦ ـ خلاصة الأثر للمحبي ، طبعة مصر ١٢٨٤

دمشق

بدأت الصّلات بين الشام والأندلس منذ القديم ، منذ نزحت القبائل العربيّة من أجناد دمشق ، تفتح افريقية والمغرب والأندلس ، وتدعو اهلها الى الاسلام ، حاملةً معها عاداتِ الشاميّين ورسومَهم في الحياة ؛ ومنذ حلّ صقر قريش ، بل صقر دمشق ، في قرطبة ، فأقام دولة بني أميّة في الأندلس « أنبل دولِ الاسلام بعد دولة الأمويين في المشرق »

لقد حمل هؤلاء الفاتحون والنازحون الكثير من روح الشام ودمشق الى الأندلس . فحدث استلطافٌ بين الصقْعَيْن . فالاستلطافُ يكون بين البلدان كما يكون بين الأشخاص . وقد ساعد على ذلك عوامل كثيرة . منها تشابه القطرين في الاقليم ، وجمال الطبيعة ، ورقة الهواء . فتونس والمغرب والأندلس تكاد تكون شآمية في طيبها وهوائها وجمال طبيعتها. ويذكر ابن سعيد الشبه الشديد بين الأندلس ودمشق خاصة فيقـــول :

« ومنذ خرجتُ من جزيرة الأندلس وطفتُ في برّ العدوة ،

« ورأيتُ مُدُنَها العظيمة كمرّاكش ، وفاس ، وسَلا ، وسَبْتَة ، ثم طفتُ في افريقية وما جاورها من المغرب الأوسط فرأيتُ بجايَة وتونس ، ثم دخلتُ الديار المصريّة فرأيتُ الاسكندريّة ، والقاهرة ، والفسطاط ، ثم دخلتُ الشام فرأيتُ دمشق وحلباً وما بينهما — لم أرَ ما يُشبه رَوْنَقَ الأندلسِ في مياهها وأشجارها إلاّ مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، ومدينة دمشق بالشام . وفي حماة مسحةٌ أندلسيّة ... » ١

فإذا أضفنا الى هذا العامل ، تأثّر أهل الشام والأندلس بثقافة اسلامية عربيّة واحدة ، واتباعهم عادات عربية أموية متقاربة ، عرفنا لماذا كان العرب الشاميّون يجدون في الأندلس وطناً كوطنهم ، والأندلسيون الراحلون الى الشام بلاداً كبلادهم.

ولمّا انقطع سيلُ العرب الشاميّين النازحين الى المغرب والأندلس للاقامة ، ظلّ منهم من يُسافر للتجارة ٢ . وبدأ عندئذ سيلُ المغاربة والأندلسيين الى المشرق . فقد صار المشرق مهوى أفئدتهم . وكانت رحلتهم اليه لأداء فريضة الحج ، أو لطلب العلم على الشيوخ الثقات ، في مصر ودمشق

(١) نقل هذا النص المقري . « انظر ، نفح الطيب — طبعة محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة — الجزء الاول ، ص ١٩٤)
وقد سميت بعض مدن الاندلس باسم مدن الشام لمشابهتها إياها كغرناطة التي سميت دمشق الأندلس (المقري ٣-١٥١)

(٢) عبد الله بن سعد بن مهران الدمشقي ، قدم أشبيلية تاجراً سنة ٤١٦ ﻫ (انظر : الصلة — طبعة العطار ، القاهرة ١٩٥٥ — الجزء الاول ، ص ٢٩٤) .

وبغداد ، أو التماساً للمال والجاه عند الملوك. فكانوا يجدون كلّ ما يشتهون. ثم يعودون حاملين معهم عادات المشرق ، وخاصة الشام [1] ، ومذاهبه [2] ، وزروعه [3] ، وكتبه [4] ، وعلمه.

---

(١) رحل حبيب بن الوليد ، من أهل قرطبة الى الشام . فلما عاد كانت له حلقة في جامع قرطبة، وكان يلبس فيحلقته الوشي الشامي . (انظر : المقري ، نفح ، ٣-٢٥٩) .

(٢) أدخل الأندلسيون مذهب فقيه دمشق الأوزاعي الى بلادهم (المقري ٢ - ٢٥١ - ٢٥٢) وكان صعصعة بن سلام الشامي تدور عليه الفتيا أيام الأميرعبدالرحمن بن معاوية ، وولى الصلاة بقرطبة . وفي أيامه غرست الشجر في المسجد الجامع . وهو مذهب الاوزاعي والشاميين ، ويكرهه مالك واصحابه (انظر : ابن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة - طبعة العطار القاهرة - ١٩٥٤ الجزء الأول ، ص ٢٤٠) وقد اتبع ذلك ايضاً أهل المغرب ، كما شاهدنا في مسجدالكتبية في مراكش بالمغرب . ولم يتحول الأندلسيون عن مذهب الأوزاعي الا في ايام الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل-ثالث الولاةالامويين (انظر نفح الطيب ٤ : ٢١٤)

(٣) لما صار معاوية بن صالح الى الأمير عبد الرحمن قافلا من رحلته في المشرق ، حمل معه اليه تحف أهل الشام ، وفيها الرمان - الذي كان يعرف بالسفري - فجعل جلساء الأمير من أهل الشام يذكرون الشام ويتأسفون عليها . وكان فيهم رجل يسمى سفر. فاخذ من ذلك الرمان شيئاً لطف به وغرسه ، حتى علق ونما وأثمر ، فهو الرمان السفري (انظر : الخشني ، قضاة قرطبة - طبعة العطار ، القاهرة ١٣٧٢ هـ - ص ٢١ ، ٣٢) .

(٤) الكتب المشرقية التي انتقلت الى الاندلس اكثر من ان تحصى . وقل أن عاد اندلسي من المشرق ولم يحمل معه كتباً . مثلا : احمد بن مغيث الصدفي ، رحل الى المشرق وجلب معه كتباً صحاحا (انظر : الصلة ١-٦٤) . وكان للحكم الثاني عمال مكلفون باستنساخ الكتب القيمة في دمشق وغيرها من مدن المشرق (الفكر الاندلسي . ترجمة حسين مؤنس . ص ١٠) .

ولقد كانت الشام ، برغم بُعدها عن طريق الحج ، مقصداً للأندلسيين والمغاربة . وقلّ أن رحل أندلسيٌّ الى المشرق ولم يزر الشام . حتّى في أظلم عهودها كعهد الفاطميين . وقد آثرها بعضُهم على وطنه فأقام بها وتزوّج منها وتعلّم بها ، أو أفاد بعلمه أهلها ، ومكث آخرون زمناً فيها ثم عادوا الى بلادهم

ذلك أنّ الشام ، ودمشق خاصة ، كان لها اسم رنّان من النواحي السياسية والدينية والعلمية . ففيها تأسّست أولُ امبراطورية عربيّة امتدّت من الصين الى الأندلس . ومنها توسّع الاسلام وبدأ عزّ العرب . والشامُ — وفيها دمشقُ وبيتُ المقدس — أرضٌ مقدّسة ورد في فضلها أحاديث كثيرة ، تنوقلت ورويت كثيراً . رواها الرَبَعيّ (— ٤٤٤) في « فضائل الشام ودمشق » ، ورواها محدّث دمشق ومؤرخها ابن عساكر (— ٥٧١) في « تاريخه » الكبير . وهي حسب هذه الأحاديث أرض مباركة ، حثّ الرسول أمته على سكناها . وهي عقرُ دار المؤمنين عند وقوع الفتن . وهي صفوة الله من بلاده ، وإليها يجتبي خيرته من عباده . وهي أرض المحشر والمنشر . أما دمشق فأرضٌ ألطافُ الله بأهلها متداركة ، وهي من مدن الجنّة ، ومهبطُ عيسى قبل قيام الساعة ، وفسطاطُ المسلمين يوم الملحمة ، وأهلُها لا يزالون على الحق ظاهرين ... [1]

---

(١) انظر : الربعي ، فضائل الشام ودمشق — تحقيق صلاح الدين المنجد

وقد أثّرت هذه الصبغة الدينية في نفوس الأندلسيين حتى إن احدهم ألّف في «فضائل بيت المقدس»[1]

وسواء أصحّت هذه الأحاديث أم كانت موضوعة، فإنها أحاطت الشام ودمشق بهالة من القداسة والبركة. وجعلت الناس، على اختلاف ديارهم، يرغبون فيها ويرحلون اليها.

وثمة أمرٌ آخر كان الأندلسيّون يعظّمون دمشق من أجله هو وجود نعل النبيّ، عليه السلام، فيها. وقد لهج بهذه النعال كثيرون من كبار الأندلسيّين والمغاربة كأبي بكر بن العربي، وابن الحاج، وابن رُشيد. وقد ذكر اقوالهم المقرّي في كتابه «فتح المتعال في مدح النعال[2]». وكانت هذه النعل عند أسرة شريفة من أسر دمشق هي أُسرة ابن أبي الحديد، التي اشتهر منها القاضي عبدالرحمن بن عبدالله، خطيب جامع دمشق، المتوفي سنة ٥٤٦ هـ[3]. ثم لما بنى الملك الأشرف

=مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٥٠؛ ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق، المجلدة الأولى – تحقيق صلاح الدين المنجد – مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٥١؛ المقدسي، فضائل الشام (مخطوط في الظاهرية بدمشق، مجموع ٤٨)؛ التنوخي، مختصر في الملاحم والفتن (مخطوط في الظاهرية بدمشق، ٦٢ أدب).

(١) هو احمد بن خلف. أنظر فهرست ما رواه ابن خير الاشبيلي (سرقسطة ١٨٩٣) ص ٢٧٩.

(٢) طبع هذا الكتاب في حيدر آباد بالهند.

(٣) انظر عنه: القلانسي، تاريخ دمشق – تحقيق امدروز، بيروت ١٩٠٨ – ص ٣١٦.

الأيوبي (ــ ٦٣٥) مدرسته دار الحديث الأشرفية الجوّانية ، في القرن السابع ، جعل بها هذه النعل.[١]

ويمكننا أن نضيف الى ذلك ، مما لهج به الأندلسيون ، وجود مصحف عثمان في المسجد الأموي[٢] ، وما كان حول دمشق من قبور الصالحين والأنبياء[٣].

وإلى هذه العوامل الدينيّة أُضيفَ أنّ دمشق أصبحت في القرن السادس ، وقبل القاهرة ، مركزاً علمياً للشرق العربي كلّه. فقد بعث فيها نورالدين السنّة ، وقضى على المذهب الشيعيّ ، وأقام فيها المدارس ، واستحضر العلماء. فازدحم بها الطلبة وقصدوها من كل صوب. ثم قويت هذه النهضة أيام صلاح‌الدين وأخلافه من الملوك الأيوبيين.[٤]

---

(١) انظر عن هذه المدرسة النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس – تحقيق جعفر الحسني – ١–١٩ (مطبوعات المجمع العلمي العربي). وانظر موقعها في : مخطط دمشق القديمة ، لصلاح الدين المنجد ، رقم ٤٥ (مطبوعات مديرية الآثار العامة)

(٢) انظر عن ذلك : مسجد دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٤٨ ، ص ٢٦

(٣) انظر عن هذا : العدوي ، الزيارات بدمشق – تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٧ – والهروي ، كتاب الزيارات تحقيق السيدة J. Sourdel (مطبوعات المعهد الفرنسي بدمشق – ١٩٥٤ دمشق . وقد نقلته الى الفرنسية باسم Guide des Lieux de Pelerinage. (P.I.F.D) Damas 1957

(٤) انظر تفصيل ذلك في كتابنا : دمشق في القرن السادس الهجري.(بيروت ١٩٥٩) والمصادر المذكورة فيه .

وتدفق اليها آلاف من المغاربة ذكر ابن عساكر بعضهم . كانوا يعملون ويدرسون ويُجاهدون ويُتاجرون . ويذكر البغدادي عبداللطيف في وصفه لمنازلة صلاح الدين على عكا سنة ٥٨٣ أنه كان « في العسكر أكثر من ألف حمّام ، وكان أكثر ما يتولاّها المغاربة . يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة ويحفرون ذراعين فيطلع الماء . ويأخذون الطين فيعملون منه حوضاً وحائطاً ، ويسيرونه بحطب وحصير ، يقطعون حطباً من البساتين التي حولهم . ويحمّون الماء في قدور . وصار حمّاماً يغسل الرجل رأسه بدرهم وأكثر . »[1]

فاذا كان في المعسكر الف حمام ، وعلى كل حمام اثنان او ثلاثة من المغاربة ، كان عدد هؤلاء المغاربة[2] وحدهم ألفين او ثلاثة آلاف ، هذا عدا آلاف غيرهم كان يعملون في أمور شتى قصدوا الشام من أجلها .

* * *

فكيف رأى هؤلاء الوافدون الأندلسيّون المغاربة دمشق ،

---

(١) المقريزي ، السلوك ج ١ ص ٩٤ (نشرة مصطفى زيادة) .

(٢) لا حاجة ان ننبه هنا ان كلمة المغاربة كانت تطلق على كل من كان في غرب القطر المصري . من لوبية وافريقية (تونس) والمغرب الاوسط (الجزائر) والمغرب الاقصى ، والأندلس . وجعل بعض المؤرخين — كالذهبي الدمشقي ، وابن سعيد المغربي — مصر من المغرب ايضاً . ولم نجعل نحن في مقالنا مصر من المغرب . بل ألحقنا من كان من المغرب الاقصى بالاندلس لتأثرهم بها .

وماذا جلب انتباههم فيها ، وماذا أوحته اليهم ؟

إنّ الذين قدموا الى دمشق كثيرون كما ذكرنا ، لكنّ الذين سجّلوا انطباعاتهم قليلون . وسأعرض هنا انموذجات مما وصل الينا من الرحلات وكتب الجغرافيا .

أقدم ما نجد من نصوص الرحلات الأندلسيّة الى الشام يرجع الى القرن الخامس الهجري . ومنها رحلة أبي بكر محمد ابن عبدالله ابن العربي المعافري ، قاضي اشبيلية [1] . فقد رحل الى المشرق وجال في أكنافه . وزار دمشق مدة ثم تركها سنة ٤٩١ هـ — أي أيّام الفاطميين — وكان عهدهم كما ذكرنا من أسوأ العهود . يكفي من سوئه أنهم أحرقوا فيه سنة ٤٦١ هـ مسجد دمشق [2] . وقد سمع ابن العربي الحديث من عالم دمشق نصر بن ابراهيم المقدسي [3] . ورحلته مهمّة نظراً لشأن صاحبها ، ولأن الفترة التي زار فيها دمشق غامضة ليس بين أيدينا نصوص كثيرة عنها . ومن المؤسف أن رحلة ابن العربي لم تصل الينا كاملة ، فلسنا نعرف منها سوى نقول موجودة في بعض المصادر ، كالنفح ، وغير قطعة صغيرة

(١) انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٣–٣٢٣ ؛ وتوفي سنة ٥٤٣ ؛ ونفح الطيب ٢–٢٣٣ ؛ وابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق (مخطوطة الظاهرية) .

(٢) عن هذا الحريق انظر : القلانسي ، تاريخ دمشق ، ص ٩٦ ؛ ابن الأثير ، البداية والنهاية (القاهرة ١٣٥١–١٣٥٨) ١٢–٩٧–٩٨ ؛ المنجد ، مسجد دمشق ص ١٢ .

(٣) انظر ترجمته في شذرات الذهب ٣–٣٩٥ . توفي سنة ٤٩٠

في خزانة الرباط العامة [1] .

وقد أُتيح للمقرّي أن يطّلع على هذه الرحلة ، ونقل منها ما رآه صاحبها من العجائب في دمشق فقال :

« وذكر في رحلتة عجائب : منها أنه دخل أحد بيوت الأكابر في دمشق فرأى فيه نهراً جارياً الى موضع جلوسهم . قال ابن العربي : فلم أفهم معنى ذلك ، حتى جاءت موائد الطعام في النهر المقبل الينا ، فأخذها الخدم ووضعوها بين أيدينا ، فلما فرغنا ، ألقى الخدم الأواني وما معها في النهر الراجع ، فذهب بها الماء الى ناحيـــة الحريم من غير ان يقرب الخدم من تلك الناحية . فعلمت السرّ ، وإن هذا لعجيب . »

تلك هي القطعة الوحيدة التي وجدناهـــا من الرحلة عن دمشق ؛ وهي تدل على أن ابن العربي اهتم — الى جانب ما ذكره عن مروياته — بوصف دمشق داخل دورها وخارجها . والأمر الذي عجب منه ابن العربي ليس العجيب . فالماء وافر في دمشق جداً ، بسبب وجود نهر بردى وفروعه وقد استغلّ الدمشقيون هذا الماء فأجروه في دورهم ومدارسهم وطرقهم ، واستغلوه في شؤونهم البيتية فجعلوه كما رأينا ، يأتي بالموائد الغالية، بالمآكل، ويروح بالأواني الفارغة . وقد شهدت أنا بنفسي مثل هذا في دور الصالحية التي يخترقها نهر يزيد .

---

(١) اخبرني بوجودها الاستاذ ابراهيم الكتاني ، ولم أرها .

وتكثر النصوص الأندلسية والمغربية عن دمشق في القرن السادس . وهذا القرن يعتبر من العصور الذهبية من تاريخ هذه المدينة . فقد كان عصر نورالدين الذي وحد سورية وقضي على الدويلات الصغيرة فيها ، ومهد لصلاح الدين أن يحقق وحدة العالم الاسلامي الشرقي ويقضي القضاء المبرم على دولة الفاطميين ، ثم يفتح بيت المقدس ويحطم مملكة الصليبيين بعد قرن من تأسيسها .

وكان عصرَ ابن عساكر أكبر مؤرّخ عرفته دمشق ، الذي كتب تاريخه في ثمانين مجلّدة فكان أعظم تاريخ كُتب عن أي مدينة اسلامية .

ففي اوائل هذا القرن زار الشريف الادريسيّ دمشق سنة ٥١٠ ﻫ ثم وصفها في « نزهة الآفاق » . فأضاف الى ما نقله من ابن حوقل أشياء جديدة انفرد بها . فقال :

« .. ومدينةُ دمشق جامعةٌ لصنوفٍ من المحاسن ، وضروبٍ من الصناعات ، وأنواعٍ من الثياب الحرير كالخزّ والديباج النفيس الثمين ، العجيب الصنعة ، العديم المثال ، الذي يحمل منها الى كلّ بلد ، ويتجهّز به منها الى كلّ الآفاق والأمصار المعاقبة لها والمتباعدة عنها . ومصانعها في كلّ ذلك عجيبة ، يُضاهي ديباجها بديع ديباج الروم ، ويُقارب ثياب تُستَر ، ويُنافسُ أعمال إصبهان ، ويسمو على أعمال طُرُز نيسابور : من جليل ثياب الحرير المُصْمتَة ، وبدائع ثياب تنّيس . وقد احتوتْ طُرُزُها على أفانين من أعمال

الثياب النفيسة فلا يُعادلها جنسٌ ولا يُقاومها مثال . »[1]

إنّنا مدينون للادريسيّ بهذا النص المهم الذي لا نجده في كتاب آخر . فهو يبيّن لنا براعة الدمشقيين في صناعة النسيج ، حتى إنهم فاقوا بما كانوا يصنعون صناعاتِ فارس — وكانت مشهورةً بذلك — ثم إن ازدهار الصناعة يدلّنا على ازدهار التجارة وعلى الرخاء الاقتصاديّ الذي كانت دمشق ترتع به ؛ لأنّ هذه الصناعات كانت تتجهّز الى الآفاق والأمصار المعاقبة لها والمتباعدة عنها .

ويضيف الإدريسيّ ملاحظات أخرى فيقول :

« ولدمشقُ في داخلها على أوديتها أرحاء كثيرة . والحنطةُ فيها كثيرة جداً . وكذلك أنواع الفواكه . أما الحلاوات فيها فمنها ما لا يوجد بغيرها كثرةً وطيباً وجودةً . وأهلُها في خصب عيشٍ واتصال أمْنٍ . وصناعاتُها نافقة ، وتجاراتها رابحة (أو رائجة)، وهي من أعزّ البلاد الشاميّة وأكملها حسناً . »[2]

ولا بُدّ أن نذكر أنّ السلاجقة هم الذين كانوا يحكمون دمشق أيّام زارها الادريسيّ[3] .

---

(١) الأدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (مخطوطة كوبرولي) مصورة بمعهد المخطوطـات ، و (اكسفورد) مصورة بالمجمع العربي بدمشق

(٢) الادريسي ، المصدر السابق

(٣) عن دمشق ايام السلاجقة انظر : ابن عساكر ؛ ولاة دمشق في العهد السلجوقي — تحقيق صلاح الدين المنجد — دمشق ١٩٤٩

وبُعَيْد الادريسيّ زار دمشق بُنْيامين التطيلي . وهو يهوديّ أندلسي زار الشرق ، لكنه لم يسلك طريق المغاربة التقليديّة ، ولم يزر المغرب وافريقية ، بل سلك طريقاً في العدوة الثانية من البحر الأبيض فصعد من شمال اسبانية الى جنوب فرنسة ، وما زال يتنقّل حتى بلغ بغداد ، ثم جاء الى دمشق قبل أن يدخلها نورالدين سنة ٥٤٩ ﻫ . وقد كتب رحلته بالعبرية ، ووصف بها البلاد التي مرّ بها . وهي مفيدة جداً . وقد عُني أكثر ما عُني بوصف حال اليهود في كل بلد زاره .

قال بنيامين :

« ودمشق مدينة كبيرة وجميلة . يدور بها سور ، وتحيط بها قرى فائقة الحسن تمتدّ نحو ١٥ ميلاً . وحدائقُها وبساتينُها تبلغ من الجمال حدّاً قلّما يوجد مثله في الدنيا .. يخترقها نهر أبانا (بردى) الذي تحمل مياهه الى دور كبار الناس في أنابيب ، كما تنقلها القساطل الى الشوارع والأسواق .. وتجارتها واسعة .. ويُقيم بها تجار من جميع الأقطار ، وجامعها قلّما يساويه بناء آخر في فخامته .

ويقيم بدمشق نحو ثلاثة ألاف يهودي ، بينهم العلماء وذوو اليسار . وفيها نحو المائتين من القرّائين ، ومن الكوتيين (السامريين) نحو الأربع مئة . وهذه الجماعاتُ على صفاء فيما بينها ، لكنّ افرادها لا يتزوّجون بغير بنات نحلتهم . » [1]

---

(١) رحلة بنيامين التطيلي (نقلها الى العربية عزرا حداد وطبعت ببغداد سنة ١٩٤٥) ص ١١٦ - ١١٧

وشهادة بنيامين تؤيّد ما رآه الادريسيّ من ازدهار التجارة في دمشق. ويقدّم لنا احصاءً بعدد اليهود الذين كانوا فيها.

وفي القرن نفسه، وفي أيام صلاح الدين، سنة ٥٨١ هـ، زار دمشق محمد بن احمد بن جُبَيْر الكناني الأندلسي. فسمع بها الحديث من محدّثيها ابي الطاهر الخشوعي، وأجاز له ابن ابي عصرون، والقاسم بن عساكر ابن مؤرخ دمشق.[١] ومدح صلاح الدين في قصيدتين. وقد وصف دمشق بما لم يصفه بها أحد. بدأ وصفه بقوله:

«دمشق جنّةُ المَشْرِق، ومَطْلَعُ حسنه المُشْرِق، خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها.. قد تحلّت بأزاهير الرياحين، وتجلّت في حُلَل سندسيّة من البساتين، وحلّت من الحسن بمكانٍ مكينٍ.. قد سئمت أرضُها كثرة الماء، حتى اشتاقت الى الظمآء.. قد أحدقت بها البساتين إحداق الهالة بالقمر.. وامتدّت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر. ولله صدقُ القائلين عنها: «إن كانت الجنّة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيثُ تسامتُها وتُحاذيها.»[٢]

بهذا المديح الجميل استهلّ ابن جُبير حديثه عن دمشق.

---

(١) المقري، نفح الطيب ٣ – ١٤٢ ومابعدها

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٤٧ (نشرة حسين نصار، القاهرة ١٩٥٥)

وهو على جماله لم يرض عنه أندلسيٌّ آخر هو ابن جابر الوادي آشي فقال عنه: «ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد، وتوّق الأنفسَ للتطلّع على صورتها بما أفاد. هذا ولم تكن له بها إقامة فيُعرب عنها بحقيقة علامة. وما وصف ذهبيّات أصيلها وقد حان من الشمس غروب، ولا أزمان فصولها المتنوّعات، ولا أوقات مرورها المهنئات. ولقد أنصف مَنْ قال: ألفيتُها كما تصف الألسن، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين.» [١]

على أن وصف ابن جبير يُعتبر من أغنى النصوص التي تُفيد في التأريخ لدمشق في القرن السادس. فقد وصف حال المدينة من الناحية الطبوغرافية والاجتماعية والعلمية والسياسية. والمهمّ في وصفه أنه ذكر اموراً رآها عجيبة بالنسبة لما ألفه هو من عادات الأندلسيين، لكنّ هذه الأمور هي من خصائص دمشق والدمشقيين.

وصف ابن جبير جامع دمشق وصفاً دقيقاً وجزم بأنه «أشهر جوامع الاسلام حسناً، وإتقانَ بناءٍ، وغرابةَ صنعةٍ، واحتفال تنميق وتزيين» [٢]. وهو أول وصف يصل الينا بعد حريقه العظيم سنة ٤٦١ هـ الذي أذهب الكثير من بهائه. وهو يدلنا على أن السلاجقة ونورالدين أعادوا اليه

(١) نفح الطيب ٣ – ١٤٧

(٢) ابن جبير الرحلة، ص ٢٤٩ وما بعدها

رونقه وتزويقه.[1] وقد قدّم لنا ابن جُبير تفصيلاً دقيقاً عن مساحة المسجد، وطوله وعرضه، وعدد بلاطاته، ونوافذه الزجاجية المذهبة الملوّنة (شمسيّاته)، ومقاصيره، وصوامعه، وأبوابه، وساعاته العجيبة التي كانت على يمين الخارج من باب جيرون، ووصف ما يحيط به من الأسواق، وساق طرفاً من عادات أهل دمشق فيه. ويحسّ قارىء رحلة ابن جُبير أنّ صاحبها مُعْجَبٌ بالمسجد، ذاهل أمام عظمته، برغم ما رأى قبله من مساجد الأندلس والمغرب ومصر والعراق والجزيرة الفُراتيّة. لكنّ هذا الوصف يختلف قليلاً عن آخر وصف للمسجد وصل الينا قبل حريقه وجدناه عند المهلّبي الفاطمي — الذي عاش في ظلّ العزيز العُبيدي — في كتابه المسالك والممالك، الذي اكتشفناه في مكتبة الأمبروزيانا بميلانو[2]. وكان المهلبي ألّف كتابه بعد سنة ٣٦٥ ﻫ أي قبل حريق المسجد بما يقرب من مئة عام.

دهش ابن جبير في دمشق لأمور كثيرة لن نستطيع سردها، لكننا سنذكر بعضها.

١ — شعر أن دمشق مركز علمي عظيم. فوصف حلقات العلم والقراءة في الجامع وقال: «ومن مفاخر هذا الجامع

---

(١) انظر كتابنا مسجد دمشق ص ١٣

(٢) انظر: صلاح الدين المنجد، قطعة من كتاب مفقود: المسالك والممالك للمهلبي. (في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الرابع مايو ١٩٥٨، ص ٤٣ — ٧٢. ووصف المسجد في ص ٦٤)

أنه لا تخلو القراءة منه صباحاً ولا مساء . وفيه حلقات التدريس ، للطلبة وللمدرّسين فيها إجراء واسع . وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي يجتمع فيها طلبة المغاربة ، ولهم إجراء معلوم ... وعند فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحاً يستند كل إنسانٍ منهم الى سارية ويجلس أمامه صبيٌّ يلقنه القرآن ، وللصبيانٌ على قراءتهم جراية معلومة .. وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة .. ومدرسة نورالدين من أحسن مدارس الدنيا منظراً ... [١] »

وهذا النص على قصره ، يصور بعض النشاط العلمي الذي ازدهرت به دمشق ايام نورالدين وصلاح‌الدين ، وليس كلّه . فقد كان أضخم من‌ذلك . وكان العلم بمتناول الجميع ، بل كان الناس يُجرّون ويُدفعون الى العلم لكثرة ما كان بدمشق من أوقاف اوقفت على طلبة العلم وعلى العلماء . [٢]

أما قوله ان عدد المدارس فيها كان نحو العشرين فهو على التقريب ، والصحيح أنه كان فيها حتى سنة ٥٨٠ ، وهي السنة التي زار فيها ابن جبير دمشق ؛ خمس وعشرون مدرسة [٣]

---

(١) الرحلة ، ص ٢٦٠ ، ٢٧٢
(٢) أنظر محمدأحمددهمان ، النهضةالعلمية بدمشق ايامالأيوبيين(دمشق ١٩٤٤)
(٣) انظر : K. A. C. Creswell, Origin of the Cruciform plan of Cairence madrasas (BIFAO, TXXI, pp, 27—28) والنعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس .

٢ ــ والأمر الثاني الذي ادهش ابن جبير هو حبّ أهل دمشق للمغاربة، والميزات التي مُنحت لهم. فيحدّثنا أن الطلبة المغاربة كان لهم زاوية خاصة في الجامع الأموي يتعلّمون فيها وتُجرى عليهم الأموال.[١] وأن علماء المغاربة كانوا يُستقبلون في المدارس ليُعلّموا، أو في المساجد ليؤمّوا. وأنه شاهد رجلاً من بقية المرابطين كان أميناً للربوة ــ والربوة ضاحية من ضواحي دمشق جميلة ــ له مكانة عند السلطان ووجوه الدولة، فكان يؤوي أهل المغرب بهذه الجهات ويسبّب لهم وجوه المعايش[٢]. وذكر أن الدماشقة أحسنوا الظنّ بالمغاربة فسلّموا اليهم كثيراً من الأعمال. قال: «لأنه قد علا لهم بهذا البلد صيتٌ في الأمانة، وطار لهم فيها ذكر»[٣] وتحدّث أنه إذا شاء أحد المتعلّقين منهم بالمعارف التعرّض للسلطان يقبله ويُكرمُه، ويُجري عليه بحسب قدره ومنصبه «قد طُبعت هذه البلادُ وملوكها على هذه الفضائل قديماً وحديثاً». وذكر أنّ نورالدين عيّن للمغاربة الغرباء زاوية المالكية بالجامع ووقف عليها أوقافاً. قال: «وحدّثني أحدُ المغاربة، وهو أبو الحسن عليّ بن سردال الجيّاني أنّ هذا الوقف المغربيّ يغلّ في العام إذا كان النظرُ فيه جيّداً خمس

(١) الرحلة، ص ٢٧٤
(٢) الرحلة، ص ٢٦٦
(٣) الرحلة، ص ٢٦٧

مئة دينار »[1] . ووصف كيف يتزاحم الناس للصلاة خلف المغاربة . فقد شاهد أبا جعفر القرطبي إمام الكلاسة يصلي والناس يتزاحمون على الصلاة خلفه « إلتماساً لبركته واستماعاً لحسن صوته »[2]

وقد تأثر ابن جبير بهذا الاكرام البالغ الذي أغرق فيه الدماشقة أهل المغرب ، فدعا جميع المغاربة الى الرحيل الى دمشق .

قال : « فمن شاء الفلاح مِنْ نَشأةِ مغربنا فليرحل الى هذه البلاد ، ويتغرّب في طلب العلم . فيجد الأمور المعينة كثيرة وأوّلها فراغ البال من أمر المعيشة .. وكلّ ذي همّة .. يحولُ طلبُ المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي فهذا الشرقِ بابه مفتوح لذلك . »[3]

وحتى أسرى المغاربة بيد الفرنج أصابهم كرم الدماشقة قال : « وقيّض الله للمغاربة بدمشق رجلين من مياسير التجار وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين في الثراء .. نصبهما الله لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما .. »[4]

ويُلحّ ابنُ جُبير في إظهار كرم الدمشقيين تجاه المغاربة ، وبرّهم بالضيف . حتى ليكون الرجل فقيراً فيؤثر المغربيَّ بما

(١) الرحلة ، ص ٢٧٤
(٢) الرحلة ، ص ٢٥٥
(٣) الرحلة ، ص ٢٧٤
(٤) الرحلة ، ص ٣٠٨ (هذا الرقم وحده يدل على طبعة اوروبة)

عنده. ويعترف ابنُ جبير أنّ هذا الكرم هو «ضدّ ما اعتدنا في المغرب»[١]. وكان المشارقة ينسبون المغاربة للبخل والحمق. حتى إن الذهبيّ عندما ترجم لابن مالك النحوي قال فيه: «خالف المغاربة في حسن الخلق والسخاء والمذهب»[٢] ولم يُنكر المغاربة البخل. ذكر ابن سعيد ذلك والتمس له عذراً فقال: «وهم أهل احتياطٍ، وتدبيرٍ في المعاش، وحفظٍ لما في أيديهم خوفَ ذلّ السؤال. فلذلك قد يُنسبون للبخل»[٣].

والأمر الثالث الذي أدهش ابن جُبير هو كثرةُ الأوقاف على العلم وعلى المساجد، التي أوقفها الملوك والأمراء والأثرياء والتجار لتعليم الناس، والوافدين على دمشق. قال: «حتى إنّ البلد تكاد الأوقافُ تستغرقُ جميع ما فيه. وكلّ مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقاه يعيّن لها السلطان اوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها. وهذه من المفاخر المخلّدة.» ثم أضاف: «ومن النساء الخواتين (أي الأميرات) ذوات الأقدار مَنْ تأمرُ ببناء مسجد، أو رباط، أو مدرسة، وتنفق فيها الأموال الواسعة، وتعيّن لها من مالها الأوقاف. ومن الأمراء مَنْ يفعل مثل ذلك، لهم في هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة.»[٤]

---

(١) الرحلة، ص ٢٧٥
(٢) انظر شذرات الذهب ٥-٣٣٩. وكان ابن مالك شافعياً.
(٣) المقري، نفح ١ — ٢٠٨
(٤) الرحلة، ص ٢٦٤

لقد سجّل ابنُ جبير في كلامه ظاهرة مهمّة ، هي أنّ قسماً كبيراً من أموال الملوك والأمراء والأثرياء كان يعود للشعب ليتعلم به .

لكنّ هذه الأوقاف لم تكن للعلم وحده ، بل كانت لخدمات اجتماعية أخرى . فيحدثنا ابن جبير عن بيمارستان نورالدين [1] . وهو مستشفى من أكبر مشافي دمشق ، بناه نورالدين وجعله وقفاً على الفقراء دون الأغنياء ، ووقف عليه اوقافاً كثيرة . كان التمريض فيه مجاناً ، وكانوا يقدّمون فيه للمرضى الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل انسان . وكان يطبّب فيه كبار الأطباء وفيهم أطبّاء السلطان . فاذا فرغوا من معالجة المرضى القوا في ايوانه الكبير دروس الطب على التلاميذ . فكان هذا المكان مدرسة للطب ومستشفى للمرضى [2] . وقد عدّ ابن جبير هذه البيمارستانات من مفاخر الاسلام [3]

٤ ــ ولاحظ ابن جبير ان دمشق مركز تجاري . فذكر أن « أسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد ، وأحسنها انتظاماً ، وأبدعها وضعاً ، ولا سيّما قيساريّاتها . وهي مرتفعات كأنّها الفناديق ، مثقّفة كلّها بأبواب حديد

---

(١) الرحلة ، ص ٢٧٢

(٢) انظر كتابنا : بيمارستان نورالدين بدمشق (دمشق ١٩٤٧)

(٣) الرحلة ، ص ٢٧٢

كأنها أبوابُ القصور . وكلّ قيساريّة منفردة بضبّتهـا وأغلاقها الحديدية . ولها أيضاً سوق يعُرف بالسوق الكبير يتصل من باب الجابية الى باب شرقي .. »[1]

ورغم ما كان بين المسلمين والصليبيين من حرب شديدة فقد كانت التجارة بين دمشق ومملكة الصليبيين قائمة . يقول ابن جبير : « واختلاف القوافل من مصر الى دمشق ، على بلاد الإفرنج ، غير منقطع . واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك . وتجّار النصارى أيضاً لا يُمنع أحدٌ منهم ولا يُعترض . وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدّونها في بلادهم ... وتجّار النصارى أيضاً يؤدّون في بلاد المسلمين على سلعهم . والاتفاق بينهم والأعتدال في جميع الأحوال . وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناسُ في عافية ، والدنيا لمن غلب . »[2]

وهذه ملاحظات ذات شأن كبير لمعرفة الحالة الاقتصادية في دمشق والشام إيام صلاح الدين والحروب الصليبيّة ، تبيّن ان الخلاف السياسيّ والديني بين المسلمين والصليبيين لم يمنعهم من التبادل التجاري، وأن دمشق كانت مركزاً سياسياً حربياً ، وفي الوقت نفسه مركزاً تجارياً مهماً .

على أنّ ابن جبير اذا كان وجد ما أعجبه ووافق هواه

---

(١) الرحلة ، ص ٢٧٨

(٢) الرحلة ، ص ٢٧٦ —٢٧٧

في دمشق فقد وجد أيضاً ما لاعهد له به في الأندلس . فوصف عادات الدمشقيّين في جنائزهم ، واجتماعاتهم في المسجد ، وأعيادهم ومآتمهم وانتقد من اخلاقهم كثرة « التمويـــل والتسويد ، وامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة » . قال : « فإذا لقي أحدٌ منهم آخر مسلّماً يقول : « جاء المملوك ، أو الخادم برسم الخدمة ، كنايةً عن السلام .. وصفة سلامهم إيماءٌ للركوع أو السجود . فترى الأعناق تتلاعبُ بيْن رفعٍ وخفض ، وبَسْطٍ وقبض ، وربّما طالت بهم الحالةُ في ذلك . فواحدٌ ينحطُّ وآخر يقوم ، وعمائمهم تهوي بينهم هُويّاً .. » ثم يُضيف : فيا للعجب منهم اذا تعاملوا بهذه المعاملة ، وانتهوا الى هذه الغاية في الألفاظ بينهم فبماذا يُخاطبون سلاطينهم ويُعاملونهم ؟ لقد تساوت الأذنابُ عندهم والرؤوس ، ولم يميّز لديهم الرئيس والمرؤوس ! » . (١)

وقد رأى ابن جُبير أن « هذا الانعكاف الركوعي في السلام «كنا عهدناه لقيْنات النساء وعند استعراض رقيق الإماء . فيا عجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلّوا بِسمات ربات الحجال ..! »

لعلّ سبب هذا النقد أنّ ما رآه كان مخالفاً لعادات الأندلسيين

---

(١) الرحلة ، ص ٢٨٥

(٢) المصدر السابق ، وثمة انتقادات أخرى تتعلق بكثرة عناية اهل الشام بالألقاب . ومشيهم وايديهم الى خلف قابضين بالواحدة على الأخرى وركوعهم للسلام ، وسحبهم ذيل ثوبهم على الأرض شبرا ، ...

فما نسبه الى الدمشقيين لا يعدو المجاملة في السلام والتخاطب. والمجاملة أثر من آثار الحضارة ونتيجة للتجارب التي يمرّ بها الانسان. ولقد ألف الدمشقيّون الحضارة. ومرّ بهم في تاريخهم الطويل من النكبات والتجارب ما جعلهم يجاملون. في حين ظلّ في أخلاق الاندلسيين لأسباب شتى جفاء من جفاء البداوة وجفاء البربر. ثم إن الأندلسيين تأثروا بالفرنجة في تعظيم ملوكهم والخضوع لهم، في حين ظلّت المساواة بين الرئيس والمرؤوس – وهي التي نصّ عليها الاسلام – قائمة عند الدمشقيين، وخاصة في عصر نورالدين وصلاح الدين.

ولقد سخر ابن جبير من عمائم أهل دمشق وأنها تهوى بينهم في سلامهم هُويّا. ولم يكن أهل الأندلس يضعون العمائم. قال ابن سعيد: «وأمّا زيّ أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم.. وهذه الأوضاع التي بالمشرق في العمائم لا يعرفها أهل الأندلس» [1]

وكيف كان الأمر فإن ابن جبير كتب لنا نصّاً مهمّاً جداً لتأريخ مدينة دمشق، غنيّاً بالملاحظات والمعلومات.

وعاصر ابنَ جُبير مغربيٌّ آخر هو عبدالمنعم بن عمر الجلياني [2]

---

(١) المقري، نفح ١ – ٢٠٧ – ٢٠٨

(٢) انظر ترجمته في المقري، نفح ٣ – ٣٩١؛ ابن إبي أصيبعة، عيون الأنباء (طبعة مللر، القاهرة ١٢٩٩ هـ) ٢ –١٥٧؛ ابن شاكر، فوات (ط. محي الدين عبد الحميد. القاهرة ١٩٥١) ٢ – ٣٥

ـ نسبة الى جليانة حصن في الأندلس من أعمال وادي آش وكان عبدالمنعم شاعراً اديباً طبيباً . رحل الى دمشق أيام صلاح الدين واستوطنها مدّة . ورآه فيها ياقوت الحموي وقد اتخذ دكّاناً يطبّب فيها في اللبّادين ، عند الجامع الأموي وذكر أنه كان عجيباً في عمل الأشعار التي تقرأ القطعة الواحدة بعدّة قواف [1] . واتصل عبدالمنعم بصلاح الدين ومدحه وله كتاب اسمه « منادح الممادح وروضه المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر » وهو الذي يُسمّى بـ « المدبجات » وفيه شعر كثير ومقامات في صلاح الدين . وما يزال هذا الكتاب مخطوطاً . فمن جملة مقاماته مقامةٌ في مدح الشام ودمشق . وهي الشذرة الثانية عشرة ، رسالة اكتتبها راجح بن جسّان في « بهجة الشام وأوصافه الحسان » يقولُ فيها :

« لمّا دُعيت الأرضُ فأتَتْ طائعةً ربّها . وبارك فيها وقَدّر أقواتها وَرَبّها ، جعل الشام لُبّها المقوّم وقلْبها ، وعِقْدها المنظّم وقُلْبَها .. مباعث الأنبياء . ومَهاجِرَ الأولياء ، وموارد الصالحين ، ومواثد السائحين ، ومَشْرق الجلال ، ومَشْرَع الحلال ، فكيف يُحصى فضلُها أو يُستقصى وبعضُ محجوجاتها المسجدُ الأقصى ؟

ثم يخلص الى مدح دمشق فيقول :

« وإن مدينة جلّق لمِنْ أبدع ما خَلَقَ . جَلّلَ ظاهرَها

(١) ياقوت ، معجم البلدان «مادة : جليانة »

الزاهران : «الخصبُ والإيناس ، وتخلّل باطنَها الطاهران : الذكر وبانَاس . يطردُ بالتنظيف ادرانها ، ويبردُ في المصيف بحرانها ، ويسري عروقاً في أعضائها نابضة ، ويمري بحوراً في أرجائها فائضة . كأنّ القنوات في أزقّتها أفواهٌ تمجّ فَصْلَ ريقتها .. وإذا حلَلْتَ جامعَها المشيد ، غبطْتَ المُخافتَ بذكر الله والمُشيد . تبهرُ الآذانَ تلاوتُه ، ويسحر الأذانُ طلاوته .. رقمتْه أيدي الهمم الأمويّة ، وأرْسَت قواعدَ بُنْيَتهِ الإرَميّة .. وترى أشجارَ نُضاره تُحيّر أبصارَ نُظّاره . في فصوصٍ تمنّتها الخواتم ، وزَهَرَتْ بها الليالي العواتم ، وصوّرَتْها صُنّاعُ الروم ، صُوَرَ البساتين والكروم . فلن ترى العينُ مثله نباتاً ، أحسنَ زهرةً وأمكن ثباتاً . لا يذوي نوّارُه ، ولا تنزوي أنوارُه . كلّ زمانٍ له ربيع .. (١)

ثم يمضي عبدالمنعم فيصف محاسن دمشق ، وجمال طبيعتها ويعقد قصيدة طويلة مطلعها

«عهودُ ليلى وما ضمّت لياليهـــا»

لوصف الغوطة وجمالها وزهرها ومائها وفاكهتها . ولا مكان لذكرها هنا لأنها طويلة . وهذه المقامة التي نقلنا بعض نصوصها مهمّة ، وتستحق أن تنشر كلها . وهي تدخل في

---

(١) منادح المادح (مخطوطة الخالدية بالقدس رقم ١٢ أدب) فلم معهد المخطوطات العربية .

باب ما يسميه الغربيّون « الجغرافيا الأدبيّة » .

وفي القرن السابع نجد ثلاثة من الأندلسيين يزورون دمشق ويسجّلون ما رأوا . أمّا الأول فهو ابوالعباس أحمد الشريشي . (ـ ٦١٦ هـ) وكان من كبار العلماء . شرح « الايضاح » لأبي عليّ الفارسيّ ، و « الجُمل » للزجّاج ، و « مقامات الحريري » ، واختصر « نوادر القالي » . وقد مكث في دمشق مدة ورحل عنها . ويذكر المقرّي أنه لما رحل عنها الى مصر أصابه الحنينُ اليها . فقال شعرتظهرَا فيه الرقّة والعذوبة . قال :

يا جيرةَ الشام هل مِنْ نحوكم خبر
فإنّ قلبي بنارِ الشوقِ يستعر
بَعُدت عنكم فلا والله بَعْدَكُم
ما لَذّ للعينِ لا نَومٌ ولا سَهَر
اذا تذكّرْتُ أوقاتاً نأتْ وَمَضَتْ
بقُرْبِكُم كادَتِ الأحشاء تَنْفَطِرُ
كأنّني لم أكن بالنيِّرَ بيْن ضحىً
والغيمُ يبكي ومنه يضحكُ الزّهَرُ
والوُرْقُ تُنشِدُ والأغصانُ راقصةٌ
والدوحُ يطربُ بالتصفيقِ والنّهرُ [١]

فهذا شعر غنائي رقيق . ولو لم تكن دمشق أثّرتْ في نفسه التأثير الكبير لما أوحت اليه هذا الشعر الجميل .

---

(١) المقري ، النفح ٣ ـ ١٥١

أما الثاني فهو عبدالرحمن بن محمد بن عبدالملك بن سعيد. ـ عمّ عليّ ابن سعيد الشهير ـ . وكان رحل الى المشرق رحلة طويلة حتى بلغ العجم. ثم حلّ ببخاري. وقُتل بها حين دخلها التتر. ومرّ بدمشق بعد أن حجّ وزار. فمما كتبه عنهـــا:

«ومِلْتُ الى حاضرةِ الشام دمشق، والنفسُ بالسوءِ أمّاره، فهنالك بعتُ الزيارةَ بالأوزار، وآلتْ تلك التجارة الى ما حكمتْ به الأقدار. إذْ هي كما قال أحدُ مَنْ عايَنَها:

أمّا دِمَشْقُ فجنّــاتٌ معجّلَــةٌ
للطالبــين بها الولــدانُ والحــورُ

«فلِلّه ما تضمّن داخلُها من الحورِ والولدان، وما زيّن به خارجُها من الأنهارِ والجنان. وبالجملة فإنّها حِمىً تتقاصرُ عن إدراكها أعناقُ الفصاحة، وتقصرُ عن مناولتها في مَيْدان الأوصاف كلّ راحة.»[1]

والرحالة الثالث هو محمد بن عمر بن محمد ابن رُشيد. (ــ ٧٢٥). زار دمشق في سنة ٦٨٤ هـ. وكتب رحلته، وسمّاها «ملءُ العَيْبَة مما جُمع بطول الغيبة». وما تزال مخطوطة. ومسوّدتها بخطه في الاسكوريال.[2] وقد خصّ

(١) المقري. النفح، ٣ – ١٣٣ – ١٣٤

(١) رقم ١٧٢٦. وانظر عن هذه الرحلة: محمد الفاسي، ابن رشيد ورحلتـه (في مجلد معهـد المخطوطات العربية. المجلد الخامس، مايو ١٩٥٩)

الجزء الرابع منها لما رآه ورواه في دمشق. ومن المؤسف ان هذا الجزء غير موجود. ويبدأ الجزء الخامس بذكر خروجه من دمشق متوجهاً الى مدينة النبيّ. قال :

« ثم توجهنا من دمشق حماها الله الى مدينة النبي. أهلّ هلال شوّال ليلة الجمعة عام ٦٨٤ هـ. وكان سفرنا من ظاهر دمشق من الموضع المعروف بميدان الحصا، عصر يوم الاثنين الحادي عشر من شوّال. وعاينّا في ذلك اليوم عند خروج الناس للوداع ما يُسيل الدموع. فبتنا تلك الليلة بالموضع المعروف بالقيساريّة على ضفة النهر. ورحلتُ سحر اليوم الثاني عشر. ونزلنا منازل بالطريق، سالكين الى مدينة بُصرى.. ورأيتُ بلداً محكم الأسوار. قديم الآثار، ابواب دوره من منحوت الأحجار.. ولم نلق بها أحداً من العلماء.. »

وهذا النصّ على صغره يفيدنا في تصوير خروج الدمشقيين لوداع الحاجّ، في ميدان الحصا. ولا شك أنّ الجزء الرابع من الرحلة، يمدّنا اذا وجد بمعلومات مهمّة عن دمشق.

وفي أوائل القرن الثامن زار دمشق رحالة مغربي، يمكن ان نلحقه بالأندلسيين، هو ابن بطوطة. فدخلها سنة ٧٢٦ هـ، ومكث بها مدّة وقرأ على شيوخها، ورافق في القراءة مؤرخ دمشق ومحدثها علم الدين البرزالي (— ٧٣٩). وقد خص دمشق في رحلته بصفحات طوال. وهو في رأينا لم يأت بشيء جديد، بل وكّد الملاحظات العامة التي سجّلها قبله

ابنُ جُبير ، لكنه لم ينتقد أهلها . امتدح جمال دمشق فقال :

« ودمشقُ هي التي تفضل جميع البلاد حسناً ، وتتقدّمها جمالاً ، وكلّ وصفٍ وإن طال فهو قاصر عن محاسنها »[1].

ووصف المسجد الأموي وصفاً أقل دقة من وصف ابن جُبير[2] . ولاحظ أن دمشق مركز علمي ، رغم انتقال السلطنة منها الى القاهرة . فقال :

« وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد .. والمسجد فيه حلقات التدريس في فنون العلم . والمحدّثون يقرأون كتب الحديث على كراسي مرتفعة . وقرّاء القرآن يقرأون بالأصوات الحسنة صباحاً مساءً . »[3]. وذكر مدارس الشافعية والحنفيّة والحنابلة بدمشق ، وما رآه فيها من علماء وقضاة[4] . وذكر عن ابن تيمية « أنه من كبار الفقهاء الحنابلة ، يتكلّم في الفنون ، إلاّ أن في عقله شيئاً » .

وقد أدهش ابن بطوطة حب الدماشقة للمغاربة . فقال : « وأهل دمشق يحسنون الظنّ بالمغاربة ، ويطمئنون اليهم بالأموال والأهلين والأولاد .. وكلّ مَنْ انقطع بجهة من

---

(١) تحفة النظار ، ص ٥٠ (طبعة التقدم ، القاهرة ١٣٢٢ هـ)
(٢) المصدر السابق ص ٥٣
(٣) المصدر السابق ص ٥٦
(٤) المصدر السابق ص ٥٨

جهات دمشق لا بُدّ أن يتأتّى له وجهٌ من المعاش من إمامة مسجد ، أو قراءة مدرسة ، أو ملازمة مسجد يجيء اليه فيه رزقه ، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة ، أو يكون كجملة الصوفية .. او حراسة بستان ، او أمانة طاحون ، أو كفالة صبيان ، يغدو معهم الى التعليم ويروح . ومَنْ اراد طلب العلم أو التفرّغ للعبادة وجد الاعانة التامة على ذلك . »

قال : وكان بدمشق فاضل متى سمع أنّ مغربيّاً وصل الى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن اليه . فإن عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته . وكان يُلازمه منهم جماعة[1].

ولاحظ ابن بطوطة الكرم الدمشقي فسجّل بعض ألوانه . وكذلك أدهشه ما رأى في المدينة من أوقاف فقال :

« والأوقاف بدمشق لا تُحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها . » [2]

على أنّه أمدّنا بأنواع هذه الأوقاف . فذكر أنّ منها ما هو للعاجزين عن الحج ، ومنها أوقاف لتجهيز البنات الى أزواجهن ، وهنّ اللواتي لا قُدرة لأهليهن على تزويجهنّ ، ومنها أوقاف لفكاك الأسرى ، وأوقاف لأبناء السبيل يُعْطَون منها ما يأكلون ويلبسون ويُرَدّون الى بلادهم ، ومنها

---

(١) المصدر السابق ص ٦٣

(٢) المصدر السابق ص ٦٣ — ٦٤

أوقاف لتعديل الطُرْق ورصفها ، وأوقاف للأواني المكسورة ، فإذا كُسِرت الأواني حُملت شَقَفُها لصاحب اوقاف الأواني ، فيدفع ثمنها ليُشتري به بدلٌ عنها . وهذه الأوقاف كلها توجد الى جانب الاوقاف الضخمة على المدارس والعلم .

وإذا كانت الخطوط العامة في وصف دمشق تتفق وخطوط ابن جُبير فإن دقائقها تختلف عنها .

وممن زار دمشق أيضاً من الأندلسيين في القرن الثامن الهجري ابن الحاج الغرناطي (ابو اسحاق ابراهيم بن عبدالله) المتوفي بعد سنة ٧٦٨ هـ — ١٣٦٧ م . وكان اديباً شاعراً ، كاتباً محدثاً . رحل الى المشرق وكتب رحلته . ويذكر المقرى أنه كان عنده في المغرب من رحلة ابن الحاج مجلد بخطه . قال : « وقد أتى فيه بالعجب العجاب » . ولم تصل الينا هذه الرحلة ، لكن المقرّي يذكر أثر دمشق فيه فيقول : « وتمهر في الحديث على طريقة أهل المشرق لأنه لقي جماعة من الحفاظ كالذهبي والبرزالي والمزّي » ، وهؤلاء الثلاثة دماشقة . وقد مدحهم في شعره . فمما قاله في الذهبي :

رحلتُ نحو دمشق الشام مبتغياً
رواية عن ذوي الأحلام والأدب
ففزتُ في كتب الآثار حين غدت
تروي بسلسلة عظمى من الذهبي

وقال في الحافظ المزّي :

جمالُ الدين أضحى في دمشق
إماماً نحوه طال الذميلُ
فلم أعدم بمنزله جميلاً
فحيث هو الجميل هو الجمالُ

واذا كنا لم نطلع على الرحلة وما ذكره فيها من دمشق ، فإن ما ذكره المقري مأخوذ منها ، وهو يدل على رأي ابن الحاج فيها وتبجيله علماءها .[1]

ولا بُدّ أن نختم بحثنا بالمقرّي الذي زار دمشق في القرن الحادي عشر. وهو إن لم يكن اندلسياً فقد تأثر بالروح الأندلسيّة. وكان عاش في فاس مدة غير قصيرة . ورحل الى الشرق أواخر سنة سبع وعشرين وألف ، وزار مصر ، فلم يطب له المقام فيها لاسباب ذكرها في مقدمة النفح ، ثم رحل الى دمشق في شعبان سنة سبع وثلاثين وألف ، بعد ما سمع عن أخلاق أهلها وكرمهم .

ويحدثنا المحبّي صاحب «خلاصة الأثر» أنه لما دخل اليها أعجبته ، فنقل أسبابه اليها واستوطنها مدّة . وأملى «صحيح البخاري» بالجامع الأموي ، تحت قبة النسر بعد صلاة الصبح . فلما كثُر الناس ضاق المسجد ، على سعَته . فخرج الى صحن المسجد . وحضره غالب علماء دمشق .

---

(١) المقري ، نفح ٩ : ٣١٦ – ٣١٧

عندما ختم الصحيح اجتمع الألوف من الناس ، وعلت الأصوات بالبكاء. وأتي له بكرسي الوعظ فصعد عليه وأشرف على الناس. وازدحم الحاضرون على تقبيل يده. قال : «ولم يتفق لغيره من العلماء الواردين على دمشق ما اتفق له من الحظوة وإقبال الناس.» [1]

اتّصل المقري بأدباء دمشق وعلمائها. فكرّموه وعظّموه ، وأغدقوا عليه. وكان يعقد معهم مجالس الأدب. وقد أثّر ذلك كله في نفسه فعقد في مقدمة النفح صفحات طوالا عن دمشق وأهلها. قال :

«فلما حللتُ بدارهم، رأيتُ ما أذهلني مِنْ سَبْقهم للفضل وبِدارهم. وقابلوني اسماهم الله ، بالاحتفال والاحتفاء

غمرتْني المكارمُ الغُرّ منهم وتوالتْ عليّ منها فنونُ
شرطُ إحسانهم تحقّق عندي ليتَ شِعْري الجزاءُ كيف يكون

ثم قـــال :

وما زال لي إحسانُهم وجميلُهم وبرّهُمُ حتى حسبتهم أُهلي

... فليتَ شعري بأيّ أسلوب أؤدي بعض حقهم المطلوب؟ أم بأيّ لسانٍ أثني على مزاياهم الحِسان.

همُ الذينَ نوّهوا بقدريَ الخامل ، وظنّوا مع نقصي أنّ بحر معرفتي كامل.

وتذكرتُ بلادي النائية ، بذلك المرأي الشاميّ الذي

(١) المحبي ، خلاصة الأثر ١ – ٣٠٢ وما بعدها (طبعة مصر ١٢٩٤ ه)

يُبْهر رائيه. فما شئتَ من أنهار ذات انسجام.. وأزهارٍ متوّجة للأدواح، مروّحة للنفوس بعطر الأرواح... وجِنانٍ أفنانُها في الحسن ذوات أفنان.

إن تكن جنّــةُ الخلود بأرضٍ
فدمشقُ ولا يــكونُ سواها
أو تكن في السماء فهي عليهــا
قد أمدّت هواءهــا وهواها [1]

ويقول في مكان آخر:

«رحلتُ الى المدينة التي ظهر فضلُها وبان، دمشق الشام ذات الحسن والبهاء، والحياء والاحتشام، والأدواح المتنوّعة، والأرواح المتضوّعة، حيث المشاهدُ المكرّمة، والمعاهد المحترمة، والغوطةُ الغنّاء.. والمكارمُ التي يباري فيها المرء شائنه وصديقه، والأظلال الوريفة، والأفنــان الوريقة، والزهرُ الذي تخاله مبسماً والندي ريقه، والقضبان المُلْدُ التي تَشوّق رائيها بجنّة الخلد [2]:

أما دمشقُ فجنّةٌ لعبتْ بألباب الخلائق
هي بهجةُ الدنيا التي منها بديعُ الحسن فائــق
لله منها الصالحيّة فاخرَتْ بــذوي الحقــائق
والغوطةُ الغنّــاء حيّتْ بالورودِ وبالشقائــق

(١) المقري ١ – ٧٣
(٢) المقري ١ – ٦٦

والنهر صافٍ والنسيم اللّدْنُ للأشواق سائــق
ولألىء الأزهـــار حلّت جيدَ غُصْنٍ فهو رائق [1]

نلاحظ أن جمال الطبيعة في دمشق أثّر في المقري تأثيراً كبيراً فلهج به. كما أثّر فيه اكرام اهلها، وقد بلغ مــن اعجابه بها أنه بعد أن أورد ما وصف به ابن جُبير دمشق قال:

«كلّ ما ذكر رحمه الله في وصف دمشق الشام وأهلها فهو في نفس الأمر يسير. ومَنْ ذا يروم عَدَّ محاسنها التي إذا رجع البصرُ فيها انقلب وهو حسير. وقد أطنب الناس فيها وما بقي أكثر ممّا ذكروه» [2]

ورحل المقري عن دمشق الى مصر في أواخر شوّال من العام نفسه، ولكنّه ظلّ وفياً لها. يقول:

«وارتحلتُ عنها الى مصر وقد تركتُ القلب فيها رهناً. وملك هواها مني فكراً وذهناً. فكأنّها بلدي التي بها ربيت، وقراري الذي لي به أهلٌ وبيت. لأنّ أهلها عاملوني بما ليس لي بشكره يدان. وها أنا الى هذا التاريخ لا أرتاح لغيرها من البلدان، ولا يشوقني ذكر أرض بابل ولا بغدان. فالله سبحانه يُعَطرّ منها بالعافية الأردان.» [3]

وقد ألّف المقري كتاباً خاصاً عن دمشق اسمه «عَرْفُ

---

(١) المقري، ١ – ٦٨
(٢) المقري، نفح ٣ – ١٤٨ و ٩ – ٣٤٢
(٣) المصدر السابق، ٣ – ١٤٨ – ١٤٩

النشق في أخبار دمشق » لم يصل الينا . [١]

ويفيدنا المقري فيما كتب ، بمعلومات كثيرة عن الحياة العلمية بدمشق ، وعن الأدباء والعلماء الذين لقيهم ، او سمع منهم ، أو سمعوا منه ، أو أجازهم .

وقد كان ممن لقيهم الأديب الدمشقي أحمد بن شاهين . فكان يجتمع اليه ويُكرمه . وهو الذي طلب منه ، وقد جرى يوماً ذكر البلاد الأندلسيّة ووزيرِها لسان‌الدين بن الخطيب ، أن يؤلّف كتاباً عنها وعنه . فأجابه الى طلبه . وألّف كتاب النفح ، وذكر في مقدمته الدواعي لتأليفه فقال :

« إن الداعي لتأليفه أهل الشام ، أبقى الله مآثرهم .. وأن الفاتحين للأندلس هم أهل الشام ذوو النجدة والشوكة، وأن غالب أهل الأندلس من عرب الشام الذين اتخذو بالأندلس وطناً مستأنفاً وحضرة جديدة .

« وان غرناطة نزل بها أهل دمشق وسمّوها باسمها لشبهها بها في القصر والنهر ، والدوح والزهر ، والغوطة الفيحـــاء .. » [٢]

فإذا لم يكن لدمشق من فضلٍ إلا أنّها دفعت المقري ، لما رآه من جمالها وكرم أهلها، الى تأليف كتاب مثل نفح الطيب

(١) وجدنا اثناء زيارتنا للمغرب في فهرست السيد عبد الحي الكتاني بفاس كتاباً في محاسن دمشق منسوباً للمقري . وعندما درسنا الكتاب وجدنا أنة ليس « عرف النشق » بل هو على الأرجح نزهة الأنام للبدري .

(٢) النفح ، ١ — ١١٧

ـ يعد من اعظم المصادر لتاريخ الأندلس ، ـ لكفاها .

* * *

هذا ما استطعنا العثور عليه من النصوص المخطوطة والمطبوعة عن دمشق في نظر الأندلسيين والمغاربة . وتدور هذه النصوص حول أمور كثيرة أبرزها ما يلي :

١ ً ـ التغني بجمال طبيعتها ، ووفرة مياهها ، وسحر غوطتها .

٢ ً ـ الاشادة بمحاسن الجامع الأموي في بنائه وتزويقه ، وما فيه من حلقات العلم والإقراء وما في دمشق من قبور الصحابة والأولياء والبقاع المباركة والمشاهد المكرّمة .

٣ ً ـ وصف الحياة العلمية في دمشق وما كان فيها من جهات موقوفة على العلم والعلماء ، او على خدمات اجتماعية مختلفة ، وإسهام الملوك والأمراء والأميرات في ذلك .

٤ ً ـ حبّ أهل دمشق للأندلسيين والمغاربة ، وما كانوا يحيطونهم به من كرم وترحاب وعناية ، مما كانوا لا يجدونه ، على الأغلب ، في بلادهم .

٥ ً ـ نقد بعض عادات الدماشقة في المخاطبة والسلام واللباس مما خالفوا به عادات أهل الأندلس .

ونرجو أن تمدّنا المصادر المخطوطة التي تكتشف كل ـدم عن نظرات جديدة ، تُضاف الى ما ذكرنا .

القاهرة

كانت القاهرة ممراً – لابُدّ منه – يمرّ به جميع الذين كانوا يقصدون المشرق من علماء الأندلس والمغربيْن وافريقية ، يبغون الحجّ ، او طلب العلم ، أو الثراء . وكانت القاهرة والاسكندرية أعظم المدن ،التي يلقاها هؤلاء القاصدون إذا خرجوا من ديارهم ، اتساعاً وضخامة عمران ووفرة سكان . فكانوا ينظرون كلّ ما فيهما بعيون مفتوحة ، يلفت انتباههم كل ما لم يألفوه في قطرهم ، مستهجنين او معجبين ، والغريب يرى دائماً ما لا يراه المقيم ؛ لأن الألفة المستمرّة تفقد الملاحظة الدقيقة ، في أكثر الأحايين ، وتعمى عن العيوب .

على الرغم من كثرة الواردين الى القاهرة من المغرب والأندلس فإنّ ما وصل الينا منهم عنها قليل . وخاصة قبل القرن السادس . ولعل ما وصل الينا عن دمشق هو اكثر قِدَماً . ولكن ما دامت المخطوطات العربية مبعثرة في انحاء العالم ، فهناك امل عريض بأن تكشف ذات يوم نصوص

كثيرة ، قد تكون كتبت قبل القرن السادس ، عن القاهرة وغيرها من البلدان الاسلامية .

* * *

ولعل أقدم هذه النصوص التي وصلت الينا عن القاهرة ، ما كتبه ابو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني الأندلسي [1] . الذي زار مصر في اول القرن السادس في حدود سنة ٥١٠ هـ ، او قبل ذلك . وكان امية اديباً عالماً ، عارفاً بالطب والتنجيم والموسيقا والرياضة . وقد زار مصر يبغي الثراء ، فاتصل بعد حين بالوزير الأفضل ، وزير الآمر الفاطمي ، لكن اتصاله به كان شرّاً عليه ، فبعد أن خدمه بالطب والتنجيم أودى به الى السجن بوشايات بلغته . فترك مصر الى المغرب ، واتصل بيحيى بن تميم بن باديس ، ووضع له رسالة اسمها « الرسالة المصرية » ذكر فيها ما عاينه في مصر وما لقيه من أهوال .

يقول امية انه لما بلغ ظلّ المقطم قال : هذه ضالتي المنشودة ، وبغيتي المقصودة . ها هنا البث وأقيم ، فلا أبرح ولا اريم . بلدة طيبة ورب غفور .. » لكنه لم يلبث أن رأى غير ذلك « ولم تطل مدّة اللبث حتى تبيّنتُ بما شاهدتُه أني فيها مبخوس البضاعة ، موكوس الصناعة ، مخصوص

(١) انظر عنه : المقري (ط . محيي الدين) ٢ — ٢٠٧

بالإهانة والإضاعة . وأن عيشها الرغد مقصور على الوغد ، وعـِقابها المرّ موقوف على الحُرّ . »[1]

ولم يخلص من محنته الا عندما « ختم الله بالوصول الى حضرة الملك الأجلّ ابي الطاهر يحيى بن تميم بن المعز بن باديس » ملك تونس .

لم يطلق أمية لسانه في المصريين ، ولم يفصّل ما وقع له فقد قال « الأولى أن أضرب عما سلف ، وأترك ما فرط » .

وصف أمية ارض مصر ونيلها ، وانتقل الى ذكر سكان مصر فذكر « أنهم اخلاط من الناس مختلفة الأصناف . من قبط وروم وعرب وبربر وأكراد وديلمْ وحُبْشان وأرمن ، وغير ذلك من الأصناف والأجناس على حسب اختلافاتهم . » ويعلل امية فقـــدان الصفاء في الجنس المصري بأنه « اختلاط المالكين لها ، والمتغلبين عليها .. فلهذا اختلطت أنسابهم فاقتصروا من التعريف بأنفسهم على الاشارة الى مواضعهم . »[2]

ويعقب بعد ذلك فيصف اخلاق المصريين فيقول :

« أما أخلاقهم فالغالب عليهم اتباع الشهوات ، والانهماك في اللذات ، والاشتغال بالترّهات ، والتصديق بالمحالات .. »[3]

حاول أمية أن يصوّر الحياة العلمية في مصر في ايامه فذكر

(١) الرسالة المصرية ١٢ و ١٣
(٢) الرسالة المصرية ص ٢٣
(٣) المصدر السابق ص ٢٤

اسماء قدماء أهل العلم بها قبل الاسلام ثم قال : « فهؤلاء هم المشهورون من أهل الحكمة بمصر في ذلك الزمان. وأما زماننا هذا فقد دثر منها كُلُ علم وامّحى رسمه ، وجهل اسمه ، ولم يبق إلاّ رعاع وغُثاء ، وجَهَلَةٌ دهماء ، وعامة عمياء ، وجُلّهم أهلُ رُعانة ، ولهم خبرة بالكيد والمكر ، وفيهم بالفطرة قوّة عليه ، وتلطّفٌ فيه ، وهداية اليه ، لما في أخلاقهم من الملقِ والسياسة التي اربوا فيها على كلّ مَنْ تقدّم وتأخّر ، وخُصّوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم ، حتى صار أمرهم في ذلك مشهورا ، والمثلُ بهم مضروبا . »[1]

ثم يمضي فيذكر حال المنتسبين الى العلم من أهلها ، فيقول :

« كنتُ في أول جلوسي بها شديد العناية بكتب جالينوس وبقراط ، باحثاً عن مُشكلها ، فاحصاً عن مستغلقها . فحرصتُ كلّ الحرص ، وجهدتُ كلّ الجهد ، على أن أجد من أهل هذه الصناعة مَنْ أستفيد منه وأستزيدُ بمذاكرته .. فلم أجد غير قوم طبع الله على قلوبهم ، وأعمى أبصارهم ، وطمس أفهامهم ، وحال بين الحكمة وبينهم .. وقد تخلّقوا بكثرة الخلاف ، وقلّة الانصاف ، ولزموا البُهْت والمعاندة ، والشغبَ والمكابرة ، وجهلهم بضاعة الكتب

(١) الرسالة المصرية ص ٣٠

وخلوهم من ادواتها ، وعدمهم لعُددها وآلاتها ، وإهمالهم لشرائطها ، وإغفالهم للوازمها ، وقصور اذهانهم عن إدراك دقائقها ، وبُعْدَ عقولهم عن تصوّر حقائقها ... »[1]

ثم يذكر خبر طبيب مصري كان طبّه الإضحاك والتندّر . « يدخل على المريض فيحكي له حكايات مضحكة ، وخرافات مسليّة ، ويخرج له وجوهاً مضحكة ، فإذا انشرح صدر المريض وعادت اليه قوّته تركه وانصرف . »[2]

ويذكر أن معظم أطباء مصر هم من اليهود والنصارى وأهل انطاكية .

ثم ينتقل الى ذكر المنجمين فينوّه بجهلهم ايضاً ، ولا يستثني إلا واحداً منهم .

وأميّة يُعنى بذكر التنجيم لأنه هو كان بارعاً فيه ولأنه رأى أن المصريين « اكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم ، وتصديقاً لها ، وتعويلاً عليها ، وشغفاً بها ، وسكوناً اليها . حتى إنه قد بلغ من زيادة أمرهم في ذلك الى أن لا يتحرّك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التي لا تُحصر فنونُها ولا تحصّل أجزاؤها ... الاّ في طوالع يختارونها[3] »

ويقصّ قصة رجل مصري وقّاد في اتون حمام رآه

---

(١) الرسالة المصرية ص ٣١ – ٣٢
(٢) المصدر السابق ص ٣٤
(٣) الرسالة المصرية ص ٣٩

يسأل أحد كبار المنجمين عن الساعة الحميدة التي يقص بها أظفاره [1].

وقصة مصري آخر، كان منجماً، سُجن، ثم أمر الوالي باطلاقه. فقالوا له: انطلق لشأنك. فأخرج من كمه الاصطرلاب فنظر فيه. فرأى أن خروجه في ذلك الوقت من السجن مذموم. فسألهم أن يتركوه في السجن الى أن يتفق وقت يصلح للخروج. فأخبروا الوالي. قال: فضحك منه، وتعجب من جهله، وفساد عقله، وأجابه الى سؤاله، وأطال مدة اعتقاله.» [2]

ويُنهي أمية رسالته بذكر من لقيه من ادباء مصر وشعرائها، كعليّ بن النضر، وابن مكنسة، والدجرجاوي، وظافر بن قاسم الحدّاد، وغيرهم. ويسوق بعض شعرهم وأخبارهم.

وعلى الجملة فإن نقد أمية لأهل مصر واطبائها ومنجّميها كان لاذعاً، شديداً، مشوباً بالسخرية والتهكم.

* * *

وفي اواخر القرن السادس نجد الرحالة الكبير ابن جبير يخصّ الاسكندرية والقاهرة بوصف ممتع مفيد في رحلته. ومما جاء في رحلته وصفه ما كان يلقاه المغاربة والاندلسيون

(١) المصدر السابق، نفس الصفحة

(٢) المصدر السابق ص ٤٠

من اهانة واذى في الاسكندرية عند وصولهم اليها . يقول :

« فمن اول ما شاهدناه فيها (الاسكندرية) يوم نزولنا أن طلع أمناء الى المركب من قبل السلطان بها ، لتقييد جميع ما جُلب فيه ، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً ، وكتبت اسماؤهم وصفاتهم واسماء بلادهم . وسُئل كلُ واحد عما لديه من سِلَعٍ او ناضٍ ليؤدّي زكاة ذلك كلّه . وكان اكثرهم متشخّصين لأداء الفريضة ، لم يستصحبوا سوى زادٍ لطريقهم ، فلُزّموا اداء زكاة ذلك دون أن يُسأل أحال عليه الحول أم لا . واستُنزِل احمدُ بن حسّان منا ليُسأل عن أنباءِ المغرب ، وسلع المركب . فطيف به مرقباً على السلطان أوّلاً ، ثم على القاضي ، ثم على أهل الديوان ، ثم على جماعة من حاشية السلطان ، وفي كلٍ يُستفهم ثم يقيّد قوله . فخُلّي سبيله ، وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم ، وما فضل من ازودتهم ، وعلى ساحل البحر أعوانٌ يتوكلّون بهم ، ويحمل جميع ما أنزلوه الى الديوان . فاستُدعوا واحداً واحداً ، وأحضر ما لكل واحد من الأسباب ، والديوان قد غص بالزحام . فوقع التفتيش لجميع الأسباب ، ما دق منها وما جلّ ، واختلط بعضها ببعض ، وأدخلت الأيدي الى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها ، ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا . وفي اثناء ذلك ذهب كثيرٌ من أسباب الناس لاختلاط الأيدي وتكاثر الزحام ، ثم أطلقوا بعد موقف من الذل

والخزي عظيم ، نسأل الله أن يعظم الأجر بذلك [1] »

ان هذه الملاحظات التي سجلها ابن جبير ذات شأن كبير ، ولو لم يكن اندلسياً لما سجلها ، ذلك لأن ما فعله أصحاب المكوس (الجمارك) المصريين مع الحجّاج المسلمين المغاربة كان مستهجناً ، فأثار انتباهه وسخطه . فالاساءة اليهم ، وإجبارهم على دفع الزكاة دون التحقق من استحقاقها ، والتفتيش على الأسباب ، حتى بإدخال الأيدي في الأوساط ، ووقوفهم موقفاً فيه ذل وخزي ، كل اولئك لم يذكره مؤلف مشرقي على كثرة الذين كانوا يزورون الاسكندرية ومصر ، او الذين كتبوا عنها .

قد يكون للعلاقات السيئة التي كانت بين صلاح الدين – وفي ايامه ورد ابن جبير الى مصر – وملوك المغرب اثر في الاساءة الى هؤلاء المغاربة والأندلسيين . فنحن نلاحظ في ايامنا كيف تؤثر العلاقات السياسة بين دولتين ، سواء كانت حسنة ام سيئة ، في معاملة كل دولة رعايا الدولة الثانية . على أنه يخيّل الينا أن اساءة عمال المكوس المصريين استقبال الوافدين على مصر أمر ملاحظ سجّله كثيرون غير ابن جبير ، حتى في عصرنا هذا .

وانفصل ابن جبير عن الاسكندرية ، متوجهاً نحو القاهرة – ماراً بدمنهور وطنطا ، وسُبك ، وقلْيوب ، والمنية –

(١) رحلة ابن جبير ص ٧ – ٨ (طبعة حسين نصار ، ١٩٥٥)

فدخلها في الحادي عشر من ذي الحجة سنة ثمان وسبعين وخمس مئة ، ونزل بفندق ابي الثناء ، في زقاق القناديل ، بمقربة من جامع عمرو بن العاص . وبدأ يذكر ما فيها من مشاهد وآثار . فخص مشهد الحسين بوصف دقيق فقال :

« فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذي بمدينة القاهرة ، حيث رأس الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهما . وهو في تابوت فضة مدفون تحت الأرض ، قد بُني عليه بنيان صفيل ، يقصر الوصف عنه ، .. مجلل بأنواع الديباج ، محفوف بأمثال العُمُد الكبار شمعاً ابيض ، ومنه ما هو دون ذلك ، قد وُضع اكثرها في اتوار فضة خالصة ، ومنها مذهبة ، وعلقت عليه قناديل فضة ... ومن أعجب ما شاهدناه في دخولنا الى هذا المسجد المبارك حجر موضوع في الجدار الذي يستقبله الداخل ، شديد السواد والبصيص ، يصف الأشخاص كلها كأنه المرأة الهندية الحديثة الصقل . وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك ، وإحداقهم به ، وانكبابهم عليه ، وتمسّحهم بالكسوة التي عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين الى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة ومتضرعين ، ما يذيب الأكباد ويصدع الجماد . »

وعدّ ابن جبير قرافة القاهرة ، من عجائب الدنيا « لما تحتوي عليه من مشاهد الأنبياء صلوات الله عليهم ، وأهل البيت رضوان الله عليهم ، والصحابة والتابعين والعلماء

والزهاد والأولياء .. » وذكر عدداً كبيراً من القبور والمشاهد ، وبات فيها ليلة .

ولاحظ أن خطبة الجمعة تقام في احد الجوامع « ويأخذ الخطيب فيها مأخذاً سنّياً ، يجمع فيها الدعاء للصحابة وللتابعين ومن ، واهم ، ولأمهات المؤمنين زوجات النبي .. ولعميه الكريمين حمزة والعباس .. ويأتي للخطبة لابساً السواد على رسم العباسيّة . وصفة لباسه بردة سوداء عليها طيلسان شرب أسود ، وهو الذي يسمّى بالمغرب الاحرام ، وعمامة سوداء ، متقلداً سيفاً ... وعند صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر في اول ارتقائه ، ضربة يُسمع بها الحاضرين ، كأنها ايذان بالانصات ..

وشاهد ابن جبير بناء القلعة فقال : « وشاهدنا أيضاً بنيان القلعة ، وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه ، ويمدّ سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة . والمسخرون في هذا البنيان ، والمتولون لجميع امتهاناته ومئونته العظيمة — كنشر الرخام ، ونحت الصخور العظام ، وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور ، وهو خندق يُنقر بالمعاول نقراً في الصخر عجباً من العجائب الباقية الآثار — العلوج الأسارى من الروم ، وعددهم لا يحصى كثرة ، ولا سبيل أن يمتهن في ذلك البنيان أحد سواهم . »

وليس المهم في كلمة ابن جبير هذه أنه شاهد بناء القلعة ،

بل المهم ملاحظته ان الذين سُخروا في هذا البنيان وتولّوه هم « العلوج الاسارى من الروم » ، فلم يكونوا اذن من المصريّين . ولاشك أن ابن جبير يعني بأساري الروم اولئك الذين اسرهم صلاح الدين من الصليبيّين . وهو يوضح أن عددهم كثير لا يحصى كثرة ، ويؤكد بلفظ « لا سبيل » أن احداً غيرهم لا يستطيع القيام بهذا البنيان ، فهو ينفي أن يقوم بالبناء ، أهل البلاد .

ويضيف ابن جبير أن « للسلطان ايضاً بمواضع أُخرَ بنياناً ، والأعلاج يخدمونه فيه . ومن يمكن استخدامه من المسلمين في مثل هذه المنفعة العامة مرفّه عن ذلك كله »

فهذه الملاحظة الثانية تدلنا على أسارى الصليبيين — او الروم كما اسماهم ابن جبير — كانوا يتولون البنيان الضخم العظيم الذي كان يشيده السلطان يومئذ ، ولا يدّ للمصريين او المسلمين فيه .

وزار ابن جبير المارستان بمدينة القاهرة فقال : « هو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً » ، ثم وصف ما فيه من مقاصير وأسرّة للمرضى ، وما يقدم فيه من الأغذية والأشربة ، والعقاقير ، وأردف أن بمصر — أي القديمة — مارستان آخر مثل هذا .

وفي وصف ابن جبير لمسجد ابن طولون فوائد . فقد ذكر أن السلطان جعله مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويعقدون حلقات الدرس فيه . قال : وأجرى عليهم الأرزاق

في كل شهر . ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم أن السلطان جعل أحكامهم اليهم ، ولم يجعل يداً لأحد عليهم . فقدموا من أنفسهم حاكماً يمتثلون أمره ، ويتحاكمون في طوارىء امورهم عنده . واستصحبوا الدعة والعافية ، وتفرّغوا لعبادة ربهم ، ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذي هم بسبيله »

لقد استار صلاح‌الدين اذن بسيرة سيده نورالدين . فنحن نعلم ، ولقد رأينا ذلك في البحث السابق ــ أن نورالدين أغدق على المغاربة بالشام وأحاطهم برعايته وعنايته وكرمه ، وابن جبير نفسه نوّه بذلك . فلما جاء صلاح‌الدين الى القاهرة أعطاهم مسجد ابن طولون « وهو من الجوامع العتيقة ــ على حد قول ابن جبير ــ الأنيقة الصنعة ، الواسعة البنيان » وجعله مأوى لهم ، وأغدق عليهم ليتفرّغوا للعبادة . ويخيّل الينا أن المشرق الاسلامي يومئذ كان يسوده شعور من العطف والاكرام والاعجاب نحو هؤلاء المغاربة ، على اختلاف بلدانهم ، الذين يأتون من أقصى الأرض ، من بلاد بعيدة نائية ، ليلتمسوا في هذا المشرق البركة والعلم . فلا عجب أن نجدهم مكرمين في كل مكان يحلّون فيه .

على أننا نلاحظ أن ابن جبير عندما ذكر اكرام نورالدين المغاربة بدمشق أضاف اليه اكرام الدمشقيين اياهم وحفاوتهم بهم وتبركهم بهم . ولكنه لم يذكر شيئاً عن اكرام المصريين والقاهريين للمغاربة ، بل خصّ ذلك بصلاح الدين . وهـــذا

يفيد في معرفة شعور أهل القاهرة نحو أي غريب عنهم .

ووصف ابن جبير الأهرام القديمة « المعجزة البناء ، الغريبة المنظر ، المربّعة الشكل ، كأنها القباب المضروبة قد قامت في جو السماء » . قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة ، وركّبت تركيباً هائلاً ، بديع الإلصاق ، دون أن يتخلّلها ما يُعين على الصاقها .. وربما أمكن الصعود اليها على خطر ومشقة .. لو رام أهل الأرض نقض بنائها لأعجزهم ذلك » .

ثم يسوق ملاحظةً تدل على أنهم كانوا لا يعرفون في ايامه أصحابها فقال : « للناس في أمرها اختلاف : فمنهم من يجعلها قبوراً لعادٍ وبنيه ، ومنهم من يزعم غير ذلك . وبالجملة لا يعلم شأنها الاّ الله عزّ وجل .. »

والى جانب ذلك ذكر ابن جبير ما رآه في الجيزة ــ وكانت قرية في غرب القاهرة ــ والروضة . ووصف مقياس النيل ، وساق بعضاً من مناقب صلاح الدين .

تلك الخطوط العامة في وصف ابن جبير ، وبالجملة فقد وصف القاهرة بعين راض معجب ، خلا ما ذكره عن اذلال المغاربة في الاسكندرية . ويخيّل الينا أنه لولا شدة ألمه مما رأى لما ذكر من هذه العيوب والنقائص شيئاً . ولكن ما جرى من أمناء المكوس المصريين كان على جانب من الفظاظة والقسوة والإذلال والإهانة ، فسجله ابن جُبير .

* * *

ونتقل الآن الى رحالة آخر ، هو العبدري ، يمثل اتجاهاً آخر في النقد والملاحظة والوصف .

كان محمد بن محمد بن علي العبدري – نسبة الى عبدالدار ، قبيلة – من جنوب المغرب الأقصى يسكن حاحة في السوس . وكان من العلماء ، بل ان المقروءات التي قرأها والمسموعات التي سمعها من الشيوخ تدل على علوّ كعبه في العلم والأدب . وكان واسع المحفوظ ، يقول الشعر . عزم على الرحلة الى المشرق فسافر اليه في سنة ٦٨٨ ه . وسجل كل ما رآه في ذهابه وإيابه . ويصف الكتاني رحلته هذه فيقول « وهي أنفس ما كتبه المغاربة قلماً وشجاعة ونقداً واتساع رواية . وبالجملة فهي رحلة جامعة » . وللعبدري فهرست شيوخ رواه الكتاني ايضاً . وما تزال رحلته مخطوطة وهي مما ينبغي نشره . وقد اختصرها ابن قنفذ صاحب الوفيات [1]

وقد اتبع العبدري الصراحة في كل ما كتبه . يقول في مفتتح الرحلة : « وبعد فإني قاصد الى تقييد ما أمكن تقييده ، ورسم ما تيسّر رسمه وتسويده ، مما سما اليه الناظر المطرف في حين الرحلة الى بلاد المشرق المشرق ، من ذكر بعض أوصاف البلدان ، وأحوال من بها من القطّان ، حسبما ادركه الحس والعيان وقام عليه بالمشاهدة شاهد البرهان ، من

(١) انظر عنه : فهرس الفهارس ٢ – ١٩٢ ؛ الأعلام ٧ – ٢٦٠ ؛ جذوة الاقتباس ١٧٩ ؛ الحلل السندسية ٣ – ١٢٨

غير تورية ولا تلويح ، ولا تقبيح حسن ولا تحسين قبيح » .

اختص العبدري بميزة في رحلته لم يشاركه بها احد من الرحالين هي الجرأة في التعبير عن رأيه وشعوره ، والنقد اللاذع . ولقد وصف مصر وأهل مصر في اخلاقهم وعاداتهم وصفاً دقيقاً ، واصلاهم ناراً حامية من نقداته ، وكان مذهبه أن الناس هم يعلّمون الشاعر الهجاء بسوء أخلاقهم :

ما على شاعر هجاكم مــلام
هــل رآكم احسنتموُ فأســاء
كان من قد مضى يعلمنــا المد
ح وأنتم تعلمونــا الهجــاء

لذلك لا يأخذنّك العجب إذا رأيت سبابه المهذبة لأهل مصر لما رآه فيهم وفي بلدهم من أشياء منكرة .

بدأ العبدري بالاسكندرية فقال : الاسكندرية « مدينة الحصانة والوثاقة ، وبلد الاشراق اللامع والطلاقة ، وطلاوة المنظر وحلاوة المذاقة ..

« مدينة فسيحة الميدان ، صحيحة الأركان ، مليحة البنيان ، تسفر عن محيا جميل المنظر ، وترنو بطرف ساجٍ أحور ، وتبسم عن ثغر كالأقحوان اذا نوّر ، كأنه لم يغب عنها شخص الاسكندر مما ساس فيها من عجائب مبانيها ودبّر ، ناهيك بمدينة كلّها عجب ، قد ستر حسنها حسن غيرها وحجب ، ...

ومن جملة ابداعها وإغرابها ما رأيتُ من اتقان ابوابها ،

وذلك ان عضائدها وعتبها ، مع افراط طول الأبواب ، كلّها من حجارة منحوتة يتعجّب من حسنها واتقانها ، وكلّ عضادة منها حجر واحد ، وكذلك كل عتبة واسكفة .. ولا أعجبَ من وضعها هنالك مع افراط عظمها ، ولم يغيّر طول الزمان شيئاً من ذلك ولا أثّر فيه بل بقي بجدّته ورونقه . وأما مصاريعها فهي غاية في الأحكام ، ملبّسة بالحديد ظهراً وبطناً بأدق ما يكون من الصنعة . »

وبعد أن يصف منارها وصف معجب مأخوذ ، يصف البلد بصورة عامة وأهله فيقول :

« وفيما سطّر الناس من وصف الاسكندرية ومنارها ، وما ذكروا من عجائب آثارها ما هو الغاية في اتقان الوصف واجادته ، وما يُغني عن تكلف اعادته ، بيد أنها الآن بلد زادت صورته على معناه ، واستأثر بالفضائل مغناه ، فهو كجسم لا روحِ فيه ، او بُرْدٍ مفوّف خلا من ملتحفيه او غمد مرقّشٍ اندقّ الصارم الذي كان يحْميه . اكثر أهلها رعاع ، ضرر بلاً انتفاع ، مع سوء اخلاق ومرارة مذاق ، وقلوب ربّاها الضغن تربية الاولاد ، وجفاها الخير والصالح لما غمرها من الشر والفساد ، والخير فيهم فعل لا يتصرّف ، والغريبُ فيهم نكرة لا تتعرّف ، إن رأوه زادوا الوجوه جهامة ، ونكروا منه ما قد نكرته الدمامة والذمامة ، وجمجموا قولاً رماه اللّكن عن قوس العجمة سهامه ، الحسدُ فيهم مضطرم النيران ، قد أفسد امزجتهم فحالت الألوان .. وتواطئوا

على تطفيف المكيال والميزان ، فإن كان مَن عاملهم غريب ، لم يلقَ منهم الاّ ما يُريب . يتخذونه هدفاً ولكلّ منهم فيه سهم مصيب ، حتى يخرج من ماله بغير نصيب ...

« ومن الأمر المستغرب ، والحال الذي أفصح عن قِلّة دينهم وأعْرب ، أنهم يعترضون الحجّاج ، ويجرّعونهم من بحر الاهانة الملح الأجاج ، ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج ، يبحثون عما بأيديهم من مال ، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال ، وقد رأيت من ذلك يوم وردنا عليهم ما اشتدّ له عجبي ... وذلك انه لما وصل اليها الركب جاءت شرذمة من الحرس ، لا حرس الله مهجهم الخسيسة ، ولا أعدم منهم لأسْدِ الآفات فريسة ، فمدّوا في الحجّاج ايديهم ، وفتّشوا الرجال والنساء ، وألزموهم الواناً من المظالم ، وأذاقوهم الواناً من الهوان ، ثم استحلفوهم وراء ذلك كله . وما رأيت هـذه العادة الذميمة والشيمة اللئيمة في بلد من البلاد ، ولا رأيتُ في الناس أقسى قلوباً ، ولا أقل مروءة وحياءً ، ولا أكثر إعراضاً عن الله سبحانه وجفاءً لأهل دينه من أهل هذا البلد . نعوذ بالله من الخذلان ، فلو شاء لاعتدل المائل وانتبه الوسنان .

وقد حسب العبدري أنّ هذا الذي يفعلونه أمر حادث ، يقول : « وكنتُ اذ رأيتُ فعل المذكورين ظننتُ أن ذلك امرٌ أحدثوه » ولكن احد الشيوخ الذين لقيهم حدّثه بما ذكره ابن جبير في رحلته عما وقع للحجّاج الذين كان فيهم في الاسكندرية ، فيسرد وصف ابن جبير ، ويذكر القصيدة التي

رفعها لصلاح الدين، ووصف بها سوء المعاملة التي يلقاها الحاج.

وبعد ان يستطرد في ذكر قصائد قالها ابن جبير وغيره يعود فيقول «قد جمح القلم في هذا الفصل بحسب استطراد القول، فقطع عما كنتُ فيه من ذكر اهل الاسكندرية، ووصف بعض أحوالها الرديّة، وهي اكثر من ان يحصرها بيان، او يحيط بها خبر أو عيان، لكنها نفثة مصدور، ولقطة جرى بها المقدور، وبودّي لو لم أرَ إلاّ حسناً فأذكره، ولم ألق إلا مشكوراً فأشكره، ولو كان القبيح يجمل بغير اوصافه والناقص يكمل بذكر أسلافه لكان أهل الاسكندرية أجمل الناس حسناً، وأكملهم في كل معنى بوجود بعض الأفراد فيهم وسكنِ الآحاد المبرّزين في العلم والدين بمغانيهم، ولكن الموتى اذا جاورهم الأحياء لم يحصل لهم بمجاورتهم الإحياء. بل بضدّها تتبيّن الأشياء.»

ثم يذكر عدداً كبيراً من أهل الفضل والعلم الذين لقيهم فيها، وما سمعه منهم، أو ما قرأه عليهم، وهذا القسم مهم في تأريخ الاسكندرية وعلمائها في القرن السابع.

وينتقل العبدري من الاسكندرية الى القاهرة «فوجدناها معيديّة المعنى لبعض ما رأينا بها وسمعنا». وكان وصل اليها في اخريات رمضان، فأتم الشهر بها وصلى مع أهل القاهرة صلاة العيد «وهم يصلونها في المساجد، وبعضهم في ساحةٍ تحت القلعة وسط البلد». ويبدو انه لم يلق منها ترحاباً «ولم ار منهم يومئذ مَنْ صـــدر منه التأنيس بكلمة، ومما قلت

في ذلك :

ذكرتُ بيوم الفطر في مصر اذ اتى
وقوسُ النوى ترمي الحشا اسهمَ الكرب

فراخاً قد نأى أنسي بنأى محلهم
وصحباً كراماً ضمّهم افق الغرب

فأفطرتُ من قبل الغدوّ بعبرة
غنيتُ بها يومي عن الأكلِ والشربِ

ويبدو ان عدم ترحاب القاهريّين به أثّر في نفسه ، حتى قال هذا الشعر ، والبيت الأخير مؤثّر ، ففي يوم الفطر الذي يبهج الناس فيه بالطعام والمآكل لم يفطر الا بعبرة وبكاء .

ونزل العبدري بالمدرسة الكاملية :

« وكنتُ نزلتُ بالمدرسة الكاملية منها في عُلْو مشرف على السوق . فكنتُ قلّما أرقُد إلاّ منغّصاً لصياح الباعة ، وهم يبيعون طول الليل . وقلّما يكون طعام الشريف منهم والوضيع إلاّ من السوق . والضغطُ على ذلك ، والزمام متصل ، والطرق غاصّة بالخلق ، حتى ترى الماشي فيها ما له همّ سوى التحفّظ من دَوْسِ الدواب إيّاه ، ولا يمكنه تأمل شيء في السوق لأنّ الخلقَ يندفعون فيها مثل اندفاع السيل . وقد ضاعت لي بها دابة بسبب الزحام كان عليها شخص راكباً . فتكاثر عليه الزحام حتى أُسقط عنها ، واندفعتْ في غمار الخلق ، ولم يمكنه التوصل اليها وهو يبصرُها ، حتى غابت عنه وكان آخر العهد بها .

« وحدّثتُ ان رسولاً من قبل ملك الروم، اخزاهم الله، وصل اليها في مدة الملك الظاهر، فأمرهم الملك ان يدوروا به بعد الظهر في البلد قصداً لأن يرى افراط عمارة البلد. فداروا به، فقال لهم: إنّ بلدكم هذا ضعيف قالوا: وكيف ذلك؟ اوماترى المخلوق الذي به؟ فقال لهم: إن هؤلاء جميعاً ما خرجوا إلا لشراء عشائهم من السوق، ولو كان في ديارهم طعام لاستغنوا عنه. ولو تعذّر السوق عليهم لماتوا جميعاً من الجوع ».

« ومن المألوف عندهم الأكل في الأسواق والطرقات والمحافل. والعرض عندهم ساقط. وقد شاهدتُ من بعض أكابرهم والمشار اليه عندهم في المعنى هذا ما لا منتهى وراءه في القبح، ونعوذ بالله من وضاعة الأخلاق. »

وقد ساق العبدري احاديث عن الرسول بعد ذلك تدل على أن الأكل في السوق دناءة، وقول الله عز وجل في الحديث القدسي: ان هذا الدين ارتضيتُه لنفسي ولن يصلحه إلاّ السخاء والخلق الحسن.

وكذلك أنكر العبدري على أهل القاهرة عنايتهم بالمنطق. يقول: « ومن الأمر المنكر عليهم، والمنكر المألوف لديهم، تدارسهم لعلم الفضول، وتشاغلهم بالمعقول عن المنقول، في إكبابهم على علم المنطق واعتقادهم انّ مَنْ لا يحسنه لا يحسن أن ينطق » ثم يسوق ادلّته على سخافة ذلك « فليت شعري هل قرأه الشافعي ومالك؟ أو هو أضاء لأبي حنيفة المسالك، وهل عاركه أحمد بن حنبل، أو كان الثوري على

تعلمه قد أقبل ، وهل استعان به اياس في ذكائه ، أو بلغ به عمرو ما بلغ من دهائه ، او تمرّس به قس وسحبان .. ؟ »

ثم يسوق الأدلّة الكثيرة على قلّة نفع هذا العلم، ويأخذ على أهل القاهرة انهم « قد جعلوه من اكبر المهمات ، واتخذوه عدّة للنوائب والملمات ، فهم يكثرون فيه الأوضاع ، وينفق كلٌ منهم في تحصيله العمر المضاع » .

على أنّ العبدري لم يحب القاهرة ، ولم يخف ذلك اذ يقول : « مدينة كبيرة القُطْر ، وساكنها يحاكي عديد الرمل والقطر ، وهي مع ذلك تصغر عن أن يسطر ذكرها في سطر » « تبلّد الذكى النحرير وتحيّر ، وتكدّر الذهن الصقيل وتغيّر ؛ وتنفى بأزاها وقذاها كل فاضل خيّر .

فإن نظرت الى صورتها ذكرت قول القائل :

بغاث الطير آطولها رقابا ولم تطــلِ البزاة ولا الصقور

وان تأولتَ معناها ذكرت قوله :

وقد عظم البعير بغير لبّ فلم يستغنْ بالعِظَم البَعيرُ

وإن تأملت إفراط عمارتها ذكِرتَ قولــه :

خشاشُ الطير أكثرُها فراخــاً
وأُمّ الصّقْرِ مقــلاةٌ نَزُورُ

وحسبْها شراً أنها جُوَيْنٌ لِحثالة العباد ، ووعاء لنفاية البلاد ، ومستقرٌ لكلّ مَنْ يسعى في الأرض بالفساد ، من أصناف اهل الشقاق والنفاق ، والعناد والالحاد » .

ويمضي في وصف أهلها فيقول :

« استولى الحسد على قلوبهم ، واستوى الغش في جيوبهم ، فنار الحسد مضطرمة في الجوانح ، وسمّ الغش ممزوج في عسل النصائح ...

« وهي سوق ينصب بها الشيطانُ رايته ، ويجري الى غايته ، ويسُري فيها لأتباعه ، وهم أهلُها آيته .

« اطبقوا على سوء الأخلاق ، وتوافقوا على رفض الوفاق ، وتواضعوا لبان اللؤم .. فجوادهم أبخل من نار الحباحب ، وشجاعهم أجبن من صافر الجنادب ، وعالمهم أجهل من فراش ، ورفيعهم اوضع من خشاش .. وجميلهم اقبح من غول .. وفصيحهم أعيا من باقل .. وعزيزهم أذلّ من سائل . يمشي الكرم بينهم مطرقاً ومقنّعاً ، ويُنفق اللؤم لديهم مفرّقاً ومجمعاً . من أظهر منهم نسكاً فأحبولة نصبها للصيد ؛ ومن تعلّم علماً فحيلة ادارها للكيد ، يسهر الليالي فلا ينام ولا يُنيم ، ويرتكب من مشاق الاجتهاد كلّ عظيم ، ويمشي الهوينا مشى الوجى او السقيم ، حتّى يصيب وديعة اليتيم . على السلطان وقفت آمالُ العلم منهم والمتعلّم ، وعلى اقتناص دراهمه يحوم الزاهد والفقيه والمحدّث والمتكلم . فمهما لاح له برق طمعٍ وقف شائماً له ولم يَرُم ، على ذلك نشأ الناشيء منهم وعليه درج الهرم .

« الدنيا عندهم جوهر والآخرة عرض ، وآمالهم صحيحة ودينهم به عرض ، وسهم الرياء بينهم يرشق كل غرض ، وقد رأيتُ فيهم من قلة الحياء وعدم التنزّه عن الخنا والفحش ،

ومن قلّة التستّر عند قضاء الحاجة ، والأكل ، ما تقضيتُ منه العجب .

« وأما بغضهم للغريب وتمالؤهم على ذلك فأمرٌ لا يحيط به علماً الاّ مَنْ عاينه . وقد رأيتهم في طريق الحجاز اذا سمعوا مهارشة شخص منهم لغريب يتجارّون اليه من كل ناحية كما تضع الكلاب اذا رأت كلباً غريباً بينها .

« وما رأيتُ بالمغرب الأقصى والأندلس على شكاسة أخلاقهم ، ولا بافريقية وأرض برقة والحجاز والشام فريقاً من الناس أرذل أخلاقاً واكثر لؤماً وحسداً ومهانة نفوس ، وأضغن قلوباً واوسخ أعراضاً ، واشد ذمامةً .. وخيانة ، وسرقة ، وقساوة ، وأجفى للغريب من أهل هذه المدينة المؤسسة على غير التقوى . وحق لمدينة وضع اساسها عبدُ الزنادقة غلام بني عبيد ، لعنهم الله ، أن تجمع أخلاق العبيد وأحوال الزنادقة . ناهيك من قوم جعلوا الخنا شعارهم ، والحسد المورث للضنى دثارهم ، فترى الشيوخ منهم يتهارشون في الطرقات ، ويقطعون بلعنة أسلافهم فسيح الأوقات . وقلّما يصدر من صبيانهم ما يصدر منهم ، ولا يؤثر عن اطفالهم ما يؤثر عنهم ، وقد قيل فيهم انهم أعقل الناس صغاراً وأحمقهم كباراً . حكاه ابو عبيد البكري في كتابه المسالك .

« وحكى فيه أيضاً أنّ أبا دلامة جاء الى مصر ثم رجع . فسئل عنها فقال : ثلثها كلاب ، وثلثها تراب ، وثلثها دواب . قيل له اين الناس؟ قال في الثلث الأول .

« وقلّ ما ترى من أهلها رجلاً صافي اللون ، إلاّ إن كان من غيرها ، ولا رجلاً طليق اللسان . واللكنة فيهم فاشيــة ، وجمهورهم يجعل القاف والكاف همزة ، وقــد سمعت شخصاً منهم في التلبية يقول لبيك اللهم لبيك . ويجعل كافاتها كلّها همزات . فلو سمعته سمعت كلاماً مضحكاً .

« وأما العقوق بينهم فمتعارف . كان معنا في طريق الحجاز شخص منهم حجّ بأمه . فكان اذا اغتاظ عليها يقولُ لها : لعنك الله ولعن الذي آواكِ يعني اباه ، وذلك بعدما حج بهــا .

« وسمعتُ شخصاً منهم يُنادي رفيقه في الركب . فلما أتاه لعنه ولعن أباه ، وقابله الآخر بمثل ذلك ، وتهارشا زماناً ثم قعدا يأكلان .

« ومن الغرائب عندهم تضييع المساجد والجوامع وإهمالها ، وقلّة التحفّظ فيها ، حتى تصير مثل المزابل ، وتسودّ حصرُها وحيطانها من الأوساخ . وقد صليتُ الجمعة في بعض جوامعها فرأيتُ فيه أكواماً من أنواع الكناسات . وهم يعتقدون نجاسة مساجدهم وجوامعهم ، وهي كذلك ، فلا يأتي مــن مصلّيهم شخص الا بحصير أو ثوب يصلّي عليه . وقد رأيتهم يفرشون في المحراب ما يصلّي عليه الإمام ، فما أكثر جفاءهم وما أقل من الله حياءهم

« ولولا لطف الله تعالى في تملّك الأتراك لهم ما أمكن المقام بها مسلم . ولكن ملوكهم أهل دين وعقائد سليمة وشفقة

وحنان على المسلمين، وتفضّل على الفقراء، وحسن ظن بأهل الدين، وهم ركن الاسلام، نفعهم الله وأحسن عونهم .. وقد رأيتُ من خدمتهم للركب واحتياطهم وصبرهم وحسن محاولتهم ما تعجبتُ منه، فالحمد لله على تيسير العون على طاعته.»

ولا ينسى العبدري ان يذكر بعض الشيوخ الذين رآهم في القاهرة، فهو يثني على عبدالمؤمن بن خلف الدمياطي الذي نجا وحده من نقده «لم أر بهذه المدينة على كثرة الخلق بها أمثل وأقرب الى الانسانية وأجمل معاملة من الشيخ ... المحدث بالمدرسة الظاهرية. وقد سمعت منه أحاديث وجملة من سنن الشافعي.

ورأى ابن دقيق العيد: فرآه «حبراً كاملاً عالماً يحق له اللقاء، وبحراً من علم لا تكدّره الدلاء، .. له تفنن في فنون العلوم، وتسلط عليها بذهن يرد المجهول الى المعلوم، وقلما يلقى له في سمة المعارف نظير، أو يوجد من يماثله في صحة البحث والتنقير، وله في البلاد ذكر شهير، وصيت مستطير، وخطر خطير، يضرب في كل فن بسهم مصيب، ويحظى منه بأوفر نصيب.. فهو الآن قطب مصر وعلمها، لولا وسوسة تصحبه، وأخلاق يجل عنها منصبه، لو كانت لها صورة كانت أشنع الصور، أو تليت لها سورة كانت أبشع السور ..»

«ومن جملة ما يصحبه من الوسواس انه لا يُمسّ منه عضو ولا لباس، بل يقتصر الوارد عليه على الاشارة بالسلام

اليه ، وحط الرأس على العادة الذميمة بين يديه .. ورأيته وهو يملي عليّ من حديثه يمسك الكتاب بعودين ، ولا يمسّه بيده ويعاني من تصفيحه .. »

كل ذلك نقده العبدري النقد اللاذع الجريء .

ولكن العبدري أعجب باتساع مصر .

« وأما أرض مصر ونيلها وعجائبها وخصبها واتساعها فأكثر من أن يحصرها كتاب او يحيط بها حساب .. ومـا ظنك بأرض هي مسيرة شهر للمجدّ ، وطأة سهلة مغلّة ، ما بها قرية إلا وهي تناظر أخرى ، ولا بستان الا وهو يسامي آخر ، ولا مدينة الا وهي تشير الى أختها .

« ... ونيلها من عجائب الدنيا عذوبة واتساعاً وغاية وانتفاعاً . وقد وُضعت عليه المدائن والقرى فصار كسلْك انتظم درراً . »

وينقل ما ذكر الأقدمون والسابقون عـلى الأهرام .

وزار العبدري مشهد الحسين ، ومشهد السيدة نفسية ، وتربة الشافعي : « والشافعي رحمه الله رجل مجدود (ذو حظ) في حياته وبعد موته ، وطار له من الصيت ما لم يطر بعضه لمن هو أعلم منه ، وخدمه الجدّ (الحظ) حتى في الأصحاب ، فما صحبه إلاّ من له فيه فرط تشيّع وغلوّ معتقـد ... »

وينهي كلامه عن القاهرة بقوله :

« قد امتدّ نَفَس الكلام في ذكر هذه المدينة المهينة وحق

له أن يقصر ، وقد كفي ذمها أنها مذمومة على مر الأعصر ..
ثم يقول : ثم سافرنا من المدينة المذكورة ، وتركناها غير محمودة ولا مشكورة . »

لقد وصف العبدري القاهرة وأهلها وصف ناقد ، حاذق ، وكان قويّ الملاحظة ، فسجّل ما رآه من العيوب التي أحسّها هو عند المصريين من مثل سوء الخلق ، وقلة الوفاء ، والعقوق والزعارة ، والنفاق ، واتباع كل ناعق ، والوسخ ، وقلة النظافة ، والعبودية ، وبغضهم للغريب ، وقلة الحياء ، والبخل ، والجبن والبعد عن الشجاعة ، وتضييعهم للعرض ، وكذلك الحسد ، والغش ، والمهانة ، والذل ، ورقة الدين . فقارىء الرحلة يخيّل اليه أن العبدري جمع عيوب أهل الأرض كلّها في أهل مصر.

ولقد كان مولعاً بالعيوب لا المحاسن ، ولكل اناس عيوب ومحاسن ، اذ لا شك في أن نجد عند أهل مصر محاسن ومناقب ، ذكرها بعض الرحالة . فشأن العبدري أنه سجل العيوب وحدها كما رآها . في حين أغفل الآخرون تسجيلها ، وذكروا ما رآوه من جميل وحسَن .

* * *

وننتقل الآن الى أندلسيّ آخر رحل وعاش في القاهرة هو ابن سعيد الاندلسي (عليّ بن موسى) . وهو أشهر من أن يعرّف . وهو صاحب « المُغْرِب » ، و « رايات المبرّزين » و « المُشْرِق » ، وعدد كبير من المؤلفات .

كانت رحلة ابن سعيد الى القاهرة في القرن السابع ايضاً .

فقدّم لنا وصفاً دقيقاً للفسطاط والقاهرة ، حفظه لنا المقري في « نفح الطيب » . قال ابن سعيد[1] :

« لما استقررتُ بالقاهرة تشوّقت الى معاينة الفسطاط . فسار معي اليها احد أصحاب القرية . فرأيتُ عند باب زويلة من الحمير المعدّة لركوب من يسير الى الفسطاط جملة عظيمة ، لا عهد لي بمثلها في بلد . فركب منها حماراً وأشار اليّ أن اركب حماراً آخر ، فأنفتُ من ذلك جرياً على عادة ما خلفته في بلاد المغرب . فأخبرني أنه غير معيب على أعيان مصر ، وعاينتُ الفقهاء وأصحاب البزّة والشارة الظاهرة يركبونها . فركبت ، وعندما ركبتُ أشار المكاري الى الحمار ، فطار بي ، وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ، ودنس ثيابي ، وعاينتُ ما كرهته . ولقلّة معرفتي بركوب الحمار وشدّة عدوه على قانون لم أعهده ، وقلّة رفق المُكاري وقعتُ في تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج فقلت :

لقيتُ بمصر أشدّ البوار   ركوب الحمار وكحل الغبار
وخلفي مُكارٍ يفوق الريا   ح لا يعرف الرفق مهما استطار
أناديه مهلاً فلا يرعوى   إلى أن سجدتُ سجودَ العثار
وقد مدّ فوقي رُوَاق الثرى   وألحد فيها ضياء النهار

فدفعت إلى المكاري أجرته ، وقلت له : إحسانك أن تتركني أمشي على رجلي . ومشيت إلى أن بلغتها ، وقدرت الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحققته بعد ذلك نحو ميلين ، ولما أقبلت على الفسطاط أدبَرَتْ عني المسرّة ، وتأملت أسواراً

---

(١) المقري ، نفح ٣ — ١٠٣ وما بعدها

مثلمة وآفاقاً مغبرة ، ودخلت من بابها وهو دون غلق ، يفضي إلى خراب معمور بمبان مشتّتة الوضع ، غير مستقيمة الشوارع ، قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل ، طبقة فوق طبقة ، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ، ويغضّ طرف الظريف ، فسرت وأنا مُقاين لاستحصاب تلك الحال ، إلى أن صرت في أسواقها الضيقة ، فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق ، والروايا التي على الجمال ما لا تفي به إلاّ مشاهدته ومقاساته ، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع ، فعانيت من ضيق الأسواق التي حوله ما ذكرت به ضده في جامع إشبيلية وجامع مرّاكش ، ثم دخلت اليه فعاينت جامعاً كبيراً قديم البناء ، غير مزخرف ، ولا محتفل في حُصُره التي تدور مع بعض حيطانه ، وتنبسط فيه ، وأبصرت العامة رجالاً ونساءً قد جعلوه مَعْبَراً بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرّب عليهم الطريق ، والبيّاعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما سوى ذلك ، والناس يأكلون في عدة أمكنة منه غير محتشمين لجري العادة عندهم بذلك ، وعدّة صبيان بأواني ماء يطوفون على من يأكل ، قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقاً ، وفضلات مآكلهم مطروحة في صحن الجامع ، وفي زواياه العنكبوت قد عظم نسْجه في السّقف والأركان والحيطان ، والصّبيان يلعبون في صحنه ، وحيطانهُ مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كَتَبْ فقرآء العامة ، إلا أن مع

ذلك على الجامع المذكور من الرّونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده في جامع إشبيلية مع زخرفته والبستان الذي في صحنه ، ولقد تأمّلت ما وجدت فيه من الارتياح والأنس دون منظر يوجب ذلك فعلمت أن ذلك سرّ مودع من وقوف الصحابة رضي الله تعالى عنهم في ساحته عند بنائه ، واستحسنت ما أبصرته من حلَق المتصدّرين لإقراء القرآن والفقه والنحو في عدّة أماكن ، وسألت عن مواد أرزاقهم فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك ، ثم أخبرت أن اقتضاء ذلك يصعب إلاّ بالجاه والتعب . »

وهكذا ازعج ابن سعيد ما لقيه من المكاري وحماره ، ولكنه دُهش أيضاً لما رأى من الشوارع الضيقة ، والتراب والغبار والأزبال مما يقبض النفس ، وساءه ما رآه في أسواقها من الزحام ، وفي مسجدها من الأوساخ ، وكيف اتخذه الرجال والنساء معبراً يطأون أرضه بأقدامهم ، والباعة مكاناً لبيع المكسّرات والكعك ، والناس مطعماً يأكلون فيه غير محتشمين ولا مراعين حرمته ، والصبيان ملعباً يلعبون فيه ، وكيف عشش العنكبوت في سقفه وأركانه ، وكيف زينت حيطانه بخطوط قبيحة بالفحم والحمرة كتبها فقراء العامة . ولا شك أن هذه الصورة التي رسمها ابن سعيد واضحة ناطقة دقيقة .

ويتابع ابن سعيد وصفه فيقول :

« ثم إنفصلنا من هناك الى ساحل النيل، فرأيت ساحلاً كَدِرَ التربة ، غير نظيف ولا متّسع السّاحة ، ولا مستقيم

الاستطالة ، ولا عليه سور أبيض ، إلاّ أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التي تصل من جميع أقطار النيل ، ولئن قلت إني لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإني أقول حقّاً . والنيل هنالك ضيق ، لكون الجزيرة التي بني فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعته ، قد توسطت الماء ومالت الى جهة الفسطاط ، ويُحسِّنُ سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفُرجة في ذلك الساحل ، وقد ذكر ابن حَوْقَل الجسر الذي يكون ممتداً من الفسطاط إلى الجزيرة ، وهو غير طويل ، ومن الجانب الآخر الى البر الغربي المعروف ببر الجيزة جسر آخر منَ الجزيرة إليه ، وأكثر جواز النّاس بأنفسهم ودوابّهم في المراكب ، لأن هذين الجسرين قد احترما لحصولهما في حيّز قلعة السلطان ، ولا يجوز أحدٌ على الجسر الذي بين الفسطاط والجزيرة راكباً احتراماً لموضع السّلطان ، وبتنا في ليلة ذلك اليوم بطيّارة مرتفعة على جانب النيل ، فقلت :

نَزَلْنا من الفُسْطاطِ أحسَنَ منزلٍ
بحيثُ امتدادُ النيلِ قد دَارَ كالعِقْدِ

وقد جُمِعَت فيه المراكب سُحْرَةً
كَسِرْبِ قطاً أضحى يرفّ على وردِ

وأصبح يطفو الموج فيه ويرتمي
ويطرب أحياناً ويلعب بالنرد

حــلا ماؤه كالرِّيق مِمّن أحبّــه
فمدت عليه حلة من حُلى الحسـد
وقد كان مثل النهر من قبل مــدّه
فأصبح لما زاده المدّ كالــورد

« وقلت هذا لأنني لم أذق في المياه أحلى من مائه ، وإنه يكون قبل المدّ الذي يزيد به ويفيض على أقطاره أبيض ، فإذا كان عباب النيل صار أحمر . »

ويتحدّث ابن سعيد عن لطف أهل الفسطاط وما يخفي تحته فيقول :

« ولم أر في أهل البلاد ألطف من أهل الفسطاط ، حتى إنهم ألطف من أهل القاهرة ، وبينهما نحو ميلين . والحال أن أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة واللين في الكلام ، وتحت ذلك من الملق ، وقلّة المبالاة ، .. ما يطول ذكره . »

على أن ابن سعيد يمدّنا في وصفه بأشياء تتصل بالحياة الاقتصادية والعمرانية لم نرها عند الذين سبقوه . فهو يذكر أن بالفسطاط مطابخ السكر والصابون « ومعظم ما يجري هذا المجرى » ويعلّل ذلك فيقول : « لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند »

ثم ينتقل الى وصف القاهرة فيقول :

« وأما مدينة القاهرة ، فهي الحالية الباهرة ، التي تفنّن فيها الفاطميون وأبدعوا في بنائها ، واتخذوها قطباً لخلافتهم . وسميت القاهرة لأنها تقهر من شذّ عنها ورام مخالفة أميرها .

« وهذه المدينة اسمها أعظم منها ، وكان ينبغي أن تكون في ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته ، لأنها مدينة بناها المُعز أعظم خلفاء العُبَيْديين ، وكان سلطانه قد عم جميع طول المغرب من أول الديار المصرية إلى البحر المحيط :

وسارت مَسير الشمس في كل بلدة
وهبت هبوبَ الريح في البر والبحر

لا سيما وقد عاين مباني أبيه المنصور في مدينة المنصورية إلى جانب القيروان ، وعاين المهدية مدينة جدّه عُبيد الله المهدي ، لكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة ، وهي ناطقة إلى الآن بألسن الآثار ، ولله درّ القائل :

همم الملوك إذا أرادوا ذِكْرها ... من بعدهم فبألسُن البنيان
إن البنــاء إذا تعاظم شأنــه ... أضحى يدل على عظيم الشان

« وتهمم من بعده الخلفاء المصريون في الزيادة في تلك القصور ، وقد عاينت فيه إيواناً يقولون إنه بني قدر إيوان كسرى الذي بالمدائن ، وكان يجلس فيها خلفاؤهم ، ولهم على الخليج الذي بين الفسطاط والقاهرة مبان عظيمة جليلة الآثار ، وأبصرت في قصورهم حيطاناً عليهــا طاقاتٌ عديدة من الكِلْس والجبس ذُكر لي أنهم كانوا يجــدّدون تبييضها في كل سنة ، والمكان المعروف بالقاهرة بين القصرين ، ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية ، ولكن ذلك أمد قليل ، ثم تسير منه إلى أمد ضيّق ، وتمرّ في ممر كدر خرج بين الدكاكين ، إذا ازدحمت فيه

الخيل مع الرجالة كان ممّا تضيق به الصدور ، وتسخن منه العيون ؛ ولقد عاينت يوماً وزير الدولة وبين يديه الأمراء ، وهو في موكب جليل ، وقد لقي في طريقه عجلة بَقَر تحمل حجارة ، وقد سدّت جميع الطرق بين يدي الدكاكين ، ووقف الوزير وعظم الازدحام ، وكان في موضع طباخين ، والدخان في وجه الوزير ، وعلى ثيابه ، وقد كاد يهلك المشاة وكدت أهلك في جملتهم . وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة ، كثيرة التراب والأزبال ، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعه ، قد ضيّقت مسلك الهواء والضوء بينها ، ولم أر في جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالاً في ذلك ، ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدري ، وتدركني وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين .

« ومن عيوب القاهرة أنها في أرض النيل الأعظم ويموت الإنسان فيها عطشاً لبعدها عن مجرى النيل ، لئلا يصادرها ويأكل ديارها ، وإذا احتاج الإنسان إلى فرجة في نيلها مشى في مسافة بعيدة بظاهرها بين المباني التي خارج السور إلى موضع يُعْرَف بالمَقس ، وجوّها لا يبرح كدراً ممّا تثيره الأرض من التراب الأسود ، وقد قلت فيها حين أكثر عليّ رفاقي من الحضّ على العود فيها :

يقولون سافرْ إلى القاهرة ومالي بها راحةٌ ظاهره
زحام وضيق وكربٌ وما تثير بها أرجلٌ سائره

وعندما يُقْبل المسافر عليها يرى سوراً أسود كدراً ،

وجوّاً مغبّراً ، فتنقبض نفسه ويفرّ انبه ، وأحسن موضع في ظواهرها للفرجة أرض الطبالة »

لاحظ ابن سعيد اذن أن اسم القاهرة في أيامه أعظم منها . وساءه منها ضيق الأسواق ، وكثرة التراب والأزبال ، وفوران الغبار حتى إنه يقرّر أنه لم ير أسوأ منها حالاً في ذلك في جميع بلاد المغرب .

ثم عاد ابن سعيد وعقد موازنة بين الفسطاط والقاهرة فقـــال :

« والفسطاط أكثر أرزاقاً ، وأرخص أسعاراً من القاهرة ، لقرب النيل من الفسطاط ، والمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك ، ويباع ما يصل فيها بالقرب منها ، وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة ، لأنه يبعد عن المدينة ، والقاهرة هي أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط لأنها المخصوصة بالسلطنة ، لقرب قلعة الجبل منهـــا ، فأمور السلطنة كلهـــا فيها أيسر ، وأكثر ، وبهـــا الطراز وسائر الأشياء التي يتزين بهـــا الرجال والنساء ، إلا أن في هذا الوقت لما اعتنى السلطان ببناء قلعة الجزيرة التي أمام الفسطاط وصيرها سرير السلطنة عظمت عمارة الفسطاط ، وانتقل إليها كثير مـــن الأمراء ، وضخمت أسواقها ، وبنى فيها السلطان أمام الجسر الذي للجزيرة قَيْسارِية عظيمة ، فنقل إليها من القاهرة سوق الأجناد التي يباع فيها الفراء والجوخ وما أشبه ذلك .

إلى أن قال : وهي الآن عظيمة آهلة ، يجبى إليها من
رق والغرب والجنوب والشمال ما لا يحيط بجملته وتفسيره
خالق الكل جلّ وعلا ، وهي مستحسنة للفقير الذي لا
اف طلب زكاة ولا ترسيماً ولا عذاباً ، ولا يطالب برفيق
إذا مات ، فيقال له : ترك عندك مالاً ، فربما سجن في
أنه أو ضرب أو عصر . والفقير المجرد فيها يستريح بجهة
خص الخبز وكثرته ، ووجود السماع والفرج في ظواهرها
دواخلها ، وقلة الاعتراض عليه فيما تذهب إليه نفسه ،
كم فيها كيف شاء من رقص في وسط السوق ، أو تجريد
سكر من حشيشة ، أو صحبته مُرْدان وما أشبه ذلك ، بخلاف
يرها من بلاد المغرب ، وسائر الفقراء لا يتعرضون اليهم
القبض للاسطول إلا المغاربة ، فذلك وقف عليهم لمعرفتهم
معاناة الحرب والبحر ، وقد عمّ ذلك من يعرف معاناة
بحر منهم ومن لا يعرف ، وهم في القدوم عليها بين حالين :
كان المغربيّ غنياً طولب بالزكاة وضيّق عليه ، وإن كان
رداً فقيراً حمل إلى السجن حتى يحين وقت الأسطول .»
وابن سعيد هنا يتمّ صورة الفسطاط التي بدأها قبل فيصف
فيها من فقراء ، وما يحدث في ظواهرها ودواخلها من
سماع للصوفية ، ورقص وسط الأسواق ، او سكر من
حشيشة ، او صحبة للغلمان المردان ، ويقرّر أن ذلك « بخلاف
غيرها من بلاد المغرب » . ثم يذكر أن المغاربة وحدهم هم
الذين يقبض عليهم لإرساهم الى العمل في الاسطول لمعرفتهم

بمعاناة الحرب والبحر. ولكن الشيء العجيب أن المغاربة كانوا مضطهدين في مصر، بأشكال شتى، رأينا من قبل بعضها، وهنا يذكر ابن سعيد أن المغربي اذا كان غنياً طولب بالزكاة وضيّق عليه، واذا كان مجرّداً فقيراً حمل الى السجن حتى يحين وقت الاسطول، في حين يترك فقراء مصر وغيرها يرقصون ويسكرون من الحشيشة ويصاحبون المردان.

وقد أُعجب ابن سعيد بما رآه في القاهرة من أزهار وأثمار: يقـــول:

«وفي القاهرة أزاهر كثيرة غير منقطعة الاتصال، وهذا الشأن في الديار المصرية يفضل كثيراً من البلاد.

«وأكثر ما فيها من الثمرات الرمان والموز، أمّا التفاح والإجاص فقليل غالٍ، وكذلك الخوخ، وفيها الورد والنرجس والنسرين والنيلوفر والبنفسج والياسمين والليمون الأخضر والأصفر، وأما العنب والتين فقليل غال، ولكثرة ما يعصرون العنب في أرياف النيل لا يصل منه إلاّ القليل، ومع هذا فشرابه عندهم في غاية الغلاء، وعامتها يشربون المِزْر الأبيض المتخذ من الحنطة، حتى إن الحنطة يطلع سعرها بسبب ذلك، فينادي المنادي من قبل الوالي بقطعه وكسر أوانيه، ولا ينكر فيها إظهار أواني الخمر ولا آلات الطرب ذوات الأوتار، ولا تبرج النساء العواهر، ولا غير ذلك مما ينكر في غيرها من بلاد المغرب، وقد دخلت في الخليج الذي بين القاهرة ومصر وتعظم عمارته فيما يلي القاهرة فرأيت

فيه من ذلك العجائب. وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب ، وذلك في بعض الأحيان وهو ضيق ، عليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم التهكم والطرب والمخالفة ، حتى إن المحتشين والرؤساء لا يجيزون العبور به في مركب ، وللسُّرُج في جانبيه بالليل منظر ، وكثيراً ما يتفرج فيه أهل الستر في الليل . »

وقد قرأ المقريزي ما ذكره ابن سعيد عن المزر واواني الخمر ، وتبرج النساء العواهر مما ينكر في غيرها من بلاد المغرب ، وما يقع في الخليج من القتلى بسبب السكر ، فقال : في هذا تحامل كثير . ولكن المقري عقب عليه فقال :

« ومن نظر بعين الانصاف علم أن التحامل في نسبة التحامل اليه » .

ويمضي ابن سعيد في الموازنة بين الفسطاط والقاهرة فيقول :

ومعاملة الفسطاط والقاهرة بالدراهم المعروفة بالسوداء ، كل درهم منها ثلاث من الدراهم الناصرية ، وفي المعاملة بها شدة وخسارة في البيع والشراء ، ومخاصمة بين الفريقين ، وكان بها قديماً الفلوس ، فقطعها الملك الكامل ، فبقيت الآن مقطوعة منها ، وهي في الإقليم الثالث ، وهواؤها رديء ، لا سيما إذا هبّ المريسي من جهة القبلة ، وأيضاً فرَمَدُ العين فيها كثير ، والمعايش فيها متعذرة نزرة ، لا سيما أصناف الفضلاء ، وجوامك المدارس قليلة كدرة ، وأكثر ما يتعيش بها اليهود والنصارى في كتابة الطب والخراج ،

والنصارى بها يمتازون بالزنّار في أوساطهم ، واليهود بعمائم صفر ، ويركبون البغال ، ويلبسون الملابس الجليلة . ويأكل أهل القاهرة البطارخ ، ولا تصنع حلاوة القمح إلا بها وبغيرها من الديار المصرية ، وفيها جوارٍ طباخات أصلُ تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين ، ولهنّ في الطبخ صنائع عجيبة ، ورياسة متقدمة . ومطابخ السكر والمواضع التي يصنع بها الورق المنصوري مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة ، قال المقري انتهى المقصود من هذا الموضع من كلام أبي الحسن النور بن سعيد رحمه الله تعالى .

وقال رحمه الله :

كم ذا تُقيمُ بمصر مُعَذَّباً بذَويها
وكيف ترجو نداهم والسحب تبخل فيها

فأنت ترى أن ابن سعيد كان في حديثه عن القاهرة والفسطاط وأهلهما أقرب الى الاعتدال لأنه ذكر المعايب وقرنها بالمحاسن .

* * *

وثمة رحّالة أندلسي كبير رحل الى المشرق في القرن الثامن الثامن ايام الناصر محمد بن قلاوون هو البلوي (خالد بن عيسى) . وكان من كبار القضاة . رحل الى المشرق للحج ، وصنّف رحلته المشهورة المسمّاة « تاج المفرق في تحلية أهل المشرق » . وقد وصف بها مصر . وما تزال الرحلة مخطوطة . وتوفي بعد سنة ٧٣٦ [١]

(١) انظر عنه : المقري ٣ – ٢٨٥ ؛ الأعلام ٢ – ٣٣٩

لا يطيل البلوي في وصف القاهرة ، كما أطنب غيره ، لا يُعنى بذكر العيوب ، ولعل جلالته في القضاء أبعدته عن ذلك .

يذكر أنه وصل إلى القاهرة فنزل بغرب الجامع الأعظم المشتهر بجامع ابن طولون . وقد أدهشه ما رآه من ازدهار أيام الناصر محمد في مصر فوصفها بأنها « أيام أمن وسكون ودعة .. انسحب ذيل العزّ ، وانضرب رواق الأمن ، وانسدل ستر العافية ، على الملأ والكافة » .

ويلفت النظر في ما كتبه البلوي وصفه مراكب النيل ، الجمال والبيمارستان . أما عن المراكب فيقول :

« أخبرني من أثق به من العلماء قال : أخبرني أحد كتاب السلطان أنهم كتبوا وأحصوا المراكب الجارية في هذا النيل المعدّة لأيساق الزرع خاصة ، فألفوها تنيف على المئة الف مركب ، ما عدا الزوارق الصغار التي للصيد والركوب وغير ذلك ، فإنها أكثر من أن تحصى .

« قال : وأخبرني الامـــام ... شمس الدين الكركي قال : أحصيت الجمال الداخلة الى القاهرة بالماء في كل يوم فبلغت ... مائتي ألف جمل ، ما عدا البغال .

« وأُحصي دكاكين السقّائين المعدّة للسقي بالقاهرة ، فبلغت ستين الف دكّان ، ما عدا السقّائين الذين بالأكواز والأكواب في الطرق والأسواق وغيرها . »

أما عن المارستان فيقول :

« ولو لم يكن للقاهرة ما تذكر به الا المارستان وحده لكفاها . وهو قصر عظيم من القصور الرائعة حسناً وجمالاً واتساعاً ، لم يُعهد مثله بقطر من الأقطار أحسن بناءً ولا ابدع انشاء ولا أكمل انتهاء في الحسن والجمال .

ويتابع قوله فيقول : وأخبرني العالم المؤرخ شمس الدين الكركي أنه يكمل فيه في كل يوم من المرضى الداخلين اليه ، والناقهين الخارجين منه أربعة آلاف نفس . وتارات يزيدون وينقصون . ولا يخرج منه كل من يبرأ فيه من مرض حتى يُعطى متولّيه إحساناً اليه ، وإنعاماً عايه : كسوة للباسة ، ودراهم لنفقاته .

« وأما ما يُعالج به المرضى من قناطير الأشربة المقطّرة والأكحال الرفيعة الطيبة ، التي يُسحق فيها دنانير الذهب الابريز ، وفصوص الياقوت النفيس ، وأنواع اللؤلؤ الثمين ، فشيء يهول السمع .. الى ما يُضاف الى ذلك كله من لحوم الطير والأغنام على اختلافها ، وتباين أصنافها مع ما يحتاج اليه كل واحد ممن يوافيه ويحلّ فيه لفرشه وعرشه من غطاء ووطاء ، مشموم ومذرور ... » .

إن هذا الوصف ، وذلك الاحصاء الذين قدمهما لنا البلوي على غاية من الشأن . فوصف البيمارستان وعدد من يدخله من المرضى ، وما ينفق عليهم لعلاجهم وكسوتهم وطعامهم ، ثم بعد ذلك ما يحملونه معهم يدل على العناية الكبرى

التي كان يبذلها الحكام في مداواة الناس ــ أو الشعب كما نقول اليوم ــ بالمجان . ثم أنظر الى هذا العدد من الداخلين والخارجين الذي أُحصي على أنه أربعة آلاف . وقد سألتُ أثناء مقامي في مصر أحد أطباء القصر العيني ، وهو مستشفى الحكومة ، عن عددالداخلين اليه يومياً فقال : قد يبلغون المائتين. فلما ذكرتُ له ما قاله البلوي أُعجب ودُهش . هذا مع عناية الحكومة اليوم بالشعب واهتمامها به . فانظر كم كان الاهتمام بالشعب يومئذ أشدّ وأكثر ، بدافع ديني بحت .

ثم إن الاحصاء الذي ذكره البلوي يفيد جداً في التاريخ لمصر ، وتقدير عدد سكانها ، ومعرفة جوانب من الحياة الزراعية والاقتصادية بها ، ايام الناصر محمد بن قلاوون .

وقد وصف البلوي مشاهد القاهرة ، ومسجد رقية ، وتربة زيد بن الحسين ، والقرافة ، وسرد أسماء بعض العلماء الذين رآهم أو قرأ عليهم .

* * *

نتنقل الآن الى ابن بطوطة المغربي الذي زار القاهرة في القرن الثامن عام ٧٢٥ هـ . وهو يبدأ بوصف مصر بقوله :

« ثم وصلت الى مدينة مصر (يعني القاهرة) . هي أم البلاد ، وقرارة فرعون ذي الأوتاد .. المتناهية في كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شئتَ من عالم وجاهل ،

وجادٍ وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومُنكر ومعروف ، تموج مَوْج البحر بسُكّانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها ، قهرت قاهرتها الأمم ، وتمكّنت ملوكها من نواحي العرب والعجم[1] .. » .

ثم يقول : ويُقال إنّ بمصر من السقّائين على الجمال اثنا عشر الف سقاء ، وإنّ بها ثلاثين الف مكارٍ ، وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين الفاً للسلطان .[2]

ويتحدث عن أهل مصر فيقول :

« وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو »[3]

ويذكر ابن بطوطة ما شاهد من مساجد ومدارس ، فينوّه بمسجد عمرو ، ويقول إن المدارس لا يحيط احد بحصرها لكثرتها ، وأما المارستان فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أُعِدّ فيه من المرافق والأدوية ما لا يُحصر . يُذكر أن مجباه الف دينار كل يوم .

ثم يذكر قرافة مصر وما فيها من قبور ، ومشهد الحسين ، وتربة السيدة نفيسة ، وتربة الشافعي ، ويتحدث عن نيل مصر وأهراماتها ، ويسرد أسماء بعض أمراء مصر ، وقضاتها وعلمائها .[4]

---

(١) الرحلة (ط . صادر · بيروت) ص ٣٦

(٢) و ٣ : الرحلة ص ٣٧

(٤) الرحلة ص ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ . . .

على أن أطرف ما ذكره ابن بطوطة هو وصف نظام الصوفية في الزوايا . فيقول :

« وأما[1] الزوايا فكثيرة ، وهم يسمّونها الخوانق ، واحدتها خانقه . والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا . وكل زاوية بمصر معيّنة لطائفة من الفقراء . وأكثرهم أعاجم . وهم أهلُ أدب ومعرفة بطريقة التصوّف . ولكل زاوية شيخ وحارس . وترتيب أمورهم عجيب .

« ومن عوائدهم في الطعام أنه يأتي خديم الزاوية الى الفقراء صباحاً فيعيّن له كلّ واحد ما يشتهيه من الطعام . فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزه ومرَقه في إناء على حدة ، لا يُشاركه فيه أحد ، وطعامهم مرتان في اليوم .

ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ، ومرتّب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر الى عشرين .

ولهم الحلاوة من السكّر في كل ليلة جمعة

والصابون لغسل أثوابهم

والأجرة لدخول الحمّام

والزيت للاستصباح .

وهم أعزاب ، وللمتزوّجين زوايا على حدة .

ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس ، والمبيت بالزاوية ، واجتماعهم بقبة داخل الزاوية .

---

(١) الرحلة ٣٨

ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجّادة مختصة به . وإذا صلّوا صلاة الصبح قرأوا سورة الفتح وسورة المُلْك ، وسورة عم ، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة فيأخذ كل فقير جزءاً ويختمون القرآن ، ويذكرون . ثم يقرأ القرّاء على عادة أهل المشرق ...

« ومن عوائدهم مع القادم أنه يأتي باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط ، وعلى كاهله سجّادة ، وبيمناه العكّاز ، وبيسراه الابريق . فيُعلم البوّابُ خُدَيّم الزاوية بمكانه ، فيخرج اليه ، ويسأله من أيّ البلاد آتي ، وبأيّ الزوايا نزل في طريقه ، ومَنْ شيخه . فإذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية ، وفرش له سجادته في موضع يليق به ، وأراه موضع الطهارة ، فيجدّد الوضوء ويأتي الى سجادته ، فيحلّ وسطه ، ويصلّي ركعتين ويُصافح الشيخ ومَنْ حضر ويقعد معهم .. »

ولعل هذا النظام كان متبعاً في الزوايا في الشام ، في ذلك العصر . وكيف كان الأمر فإن وصف ابن بطوطة يفيد في تاريخ النظام والادارة في الخوانق الصوفية في ذلك العصر .

* * *

ولا بُدّ من التنويه هنا بالمقري . فقد رأينا في البحث الأول أن المقري زار مصر سنة ١٠٢٨ هـ وتزوج بها . ثم خرج عنها الى دمشق فطاب له المقام فيها وأطنب في مدحها والثناء على أهلها . وقد سئل المقري عن مصر وحظه بها فقال :

« قد دخلها قبلنا ابن الحاجب وأنشد فيها قوله :

يا أهل مصر وجدتُ ايديكــــمُ
في بذلهـــا بالسخاء منقبضــــهْ
لما عدمت القِرى بأرضكـــمُ
أكلتُ كتبي كأنــــني إرَضه[1]

* * *

ونقفز الآن إلى القرن الحادي عشر لنرى رحالة مغربياً من فاس ، اسمه العيّاشي[2] (عبدالله بن محمد بن ابي بكر) نسبة الى عيّاش قبيلة من البربر يزور القاهرة سنة ١٠٧٢ ه ويصف ما رآه فيها . وليس في رحلة العياشي شيء أصيل ، ولعل ذلك من تأثير القرن الذي كان فيه . وتوفي سنة١٠٩٠ه

يذكر العيّاشي أنه دخل القاهرة ضحى ، ولم يجد داراً ينزل بها قرب الأزهر ، فاكترى داراً بعيدة عن الأزهر بمحل البردبكية ، وأنه وجد الوباء في القاهرة ، الا أنــــه ضعيف .

وهو ينعت الأزهر بأنه « عديم النظر في مساجد الدنيا بأجمعها ، حاشا المساجد الثلاثة .. »

---

(١) انظر خلاصة الأثر ١ — ٣٠٤ . وقارن هذا بما قاله داوود الانطاكي صاحب التذكرة عن مصر . (المحبي ٢ — ١٤٣ . في ترجمة داوود الانطاكي)

(٢) انظر عنه : الأعلام ٤ — ٢٧٣ ؛ فهرس الفهارس ٢ — ٢١١

ثم يتحدث عن زيارته لشيخه ابراهيم الميموني فيقول :

« ثم دخلنا لزيارة شيخنا الشيخ ابراهيم الميموني ، ومنزله قرب الجامع ، وقدّم لنا طعاماً حسناً . وكنا جماعة . وهذا خلاف المعتاد من أهل مصر . وإنما يتكارمون بشراب البن الذي يسمّونه القهوة . ونحن لا نعرفها ، وليست عندنا بطعام ولا دواء ولا شهوة »

ومما ذكره وصفه ما رآه خارج القلعة . قال :

« وهناك خلق من المصريين يلعبون في سائر الأيام كأنواع المشعوذين وأصحاب القرود ، ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات كالدب والحمير والتيوس والكلاب »

ثم يعقب فيقول :

« وبالجملة فأهل مصر لهم ذكاء زايد ، وحيل غريبة ، قد سُخّرت لهم أنواع الحيوانات ، فقليل من أصناف الحيوانات ما لا يوجد عندهم مسخّراً » [1]

* * *

وننهي ما بدأنا به بذكر أحد كبار العلماء التونسيين وهو محمد بيرم الخامس . وكان رجلاً فذّاً ، من نوادر الرجال . وكتابه « صفوة الاعتبار » من أجود الكتب . وقد زار بيرم

(١) رحلة العياشي ، (طبعة حجرية بفاس ١٣١٦) ص ١٢٥ ، ١٢٩ ١٣٢ ، ١٥٥

الخامس مصر أول مرة سنة ١٢٩٦ بعد خروجه من تونس ، ثم عاد اليها سنة ١٣٠٢ هـ (١٨٨٤ م) بعد الاحتلال الانكليزي إثر خروجه من استامبول . وقد استوطن بيرم الخامس مصر مدة قصيرة وتوفي بها سنة ١٨٨٩ (١٣٠٧ هـ) ودفن بتربة قرب ضريح الشافعي .

يصف لنا بيرم الخامس كيف بلغ الاسكندرية وكيف دخلها فيقول :

« فأحاطت بالباخرة القوارب الغفيرة ، وثار عجاج الصياح من أصحابها المختلطين من أهالي وأفرنج في النزاع على حمل الأثقال والركاب . ولما رأيتُ الأمر متفاقماً ضمّ لي خريتو الباخرة صُنَيْدقات رحلي ، وجلستُ حارساً لها في زاوية ، لأنّ أصحاب القوارب كادوا يختطفون الرحال شاء صاحبها أم أبى ، من غير مساومة للأجر . وتلك خلة فيهم في أيّ بلد كانوا . ثم بعد الوصول يطلبون الاجر اضعافاً مضاعفـــة .

« ولما نزل جميع الركاب مع رحالهم ولم يبق حول الباخرة الا قوارب السلع التي عُهدتها على القمرق دعوت قاربياً واتفقتُ معه على أجرٍ معيّن وأعانني على ذلك وكيل حكومة تونس الحاج علي الفيزاني رحمه الله حيث تلقّاني في الباخرة ..

« ثم لما وصلنا الى القمرق طلبوا ورقة الجواز ، وكادت تحصل لنا أتعاب بمنع الدخول الى الاسكندرية ، حيث كانوا

يمنعون دخول من يريد الحج ، وإنما جعلوا لهم خارج البلاد مكاناً محاطاً بالعساكر بحيث لا يسوغ للوارد الا الركوب في البحر أو طريق الحديد توّاً الى السويس ، وكان سبب ذلك كثرة من كان يرد من الأقطار الغربيّة للحج بلا مال ولا زاد ، فيتكاثرون بمصر ويحمّلون حكومتها أو أهاليها أعباء ثقيلة .. (ص ٧٩)

« فتداركنا الله وآذننا المكلّف بالدخول الى البلد . فنظروا الى رحالنا وأرادوا التشديد في تفتيشها وقلب عاليها على سافلها متطلبين الاحسان اليهم ، فلم يسعني الا التخلّص من الظلم بدفع شيءٍ من المال ارتكاباً لأخف الضررين من الخوف من تشتيت رحلي والسرقة منه مع التعب [1] .. »

فأنت ترى أن ما شكاه ابن جبير في القرن السادس ، والعبدري في السابع شكا منه بيرم الخامس في القرن الثاني عشر . فإن رجال القمرق لم يتبدلوا ولم يتغيّروا ، بل إن بيرم يشير الى طلبهم الرشوة — التي يسميها الاحسان — ويسمي عملهم في التفتيش ظلماً ، ويعترف أنه دفع لهم شيئاً من المال ليتخلص من الظلم .

وانتقل بيرم الخامس الى القاهرة فوصف أسواقها وحدائقها وقصورها ، قال :

« وبالقاهرة أسواق كثيرة جداً ، بل إني لم أر بلداً أكثر

---

(١) صفوة الاعتبار ٤ — ٨٠

منها حوانيتاً في سائر الجهات . وأهم طرقها القديمة هو الطريق من الأزبكية الى جامع سيدنا الحسين ، ويسمّى بالموسكي ، فهو متسع في بعض جهاته نحو ثمانية أو عشرة أمتار وفي بعضها نحو الخمسة أمتار . وأما بقية الطرق القديمة فأكثرها لا تمرّ به العجلات ، وبعضها تمر به عجلة واحدة . نعم ان الطرق الجديدة التي افتتحها اسماعيل باشا في عشر الثمانين والمائتين والف في الحارة المنسوبة اليه المسماة بالاسماعيلية هي على نحو الطرق الأوروبية اتساعاً واستقامة ، وهاته الحارة كلها محدثـــة .

« ومن محاسن القاهرة حديقة الأزبكية الجميلة الأنيقة المحاطة بسياج من قضبان الحديد الجميلة . وبها أبواب من كل الجهات على الطرقات المحاطة بها ، وهي ذات مماش ورياض وأشجار وأنوار ومقاعد وقهاوي ، تنتابها الموسيقى الرسميّة كل يوم عشية ، لكنها لا يحضرها غالباً الا الأفرنج .

« وقصور الخديوي وأقاربه الرسمية وحواشيه مالئة الحارات الجديدة ، ومبهجة لها ، برونقها . وأهمها قصر عابدين . اما القصور التي له حول القاهرة فهي كثيرة ، مضاهية أو فائقة على قصور ملوك أوروبا . وجمعت مـــا للأوروبيّين من التحسين وما للشرقيين من التزويق والاسراف ، لكل منها حدائق وعيون وحيوانات غريبة . ومن هاته بستان شوبرة ، وقصره ذو البركة الرحيبة الذي أنشأه محمدعلي بعيداً عن القاهرة نحو ثلاثة أميال . وله طريق جميل . وهي منتدى

أهل التمشي والتنزه بعجلاتهم وخيلهم لما له من البهجة بالأشجار العظيمة ، ومن ورائها البساتين والقصور المؤنقة لأهل الترف والبذخة من الاوروبيين والأمراء والوزراء ، وعلى جانبه ترعة من النيل ، وهكذا حارات الافرنج والحارات الجديدة في تأنق البناء والقصور وبهرجتها من الظاهر فضلاً عن الداخل .

« لكن ديار الأهالي ليس منظرها من الخارج مما يسر النظر . [١] »

وقد دوّن بيرم الخامس ما لاحظه من صفات المصريين وعاداتهم . فقال : « أما أهل مصر الأصلية فهم مختلطون : من العرب الفاتحين ، وأبناء القدماء المعروفين بالقبط وأبناء الروم الذين امتلكوا مصر نحو الستماية سنة .

« ولون الجميع اسمر ، الا قليلاً من أبناء الترك والمغاربة وغيرهم من الوافدين الى هناك . ولهم حسن خلق وظرافة وبشاشة في الخطاب .

« واذا احتدّت نفوس الرعاع للخصام تراهم بذيئي اللسان، لهم مهارة في أصناف السب حتى اذا بلغوا الى حد التضارب قال احدهما لصاحبه (ما عليهشي) فتسامحا وعادا الى المصافاة .

« ومن أخلاقهم حبّ السماع ، لكنهم اختصوا بكثرة

(١) صفوة الاعتبار ٤ — ٨٤

إظهار إستحسانه بالتأوّه مع رفع الصوت ، ولا يتحاشى من ذلك حتى بعض أعيانهم ، بل إنهم يستأجرون أناساً معدّين لذلك لكي يصرخوا بالتأوّه حتى تحجب أصواتهم صوت الموسيقى والمغنين ، وتمضي الحصّة كلها هكذا .

« ومن عاداتهم إحضار قرّاء القرآن في بيوتهم ليلاً للتلاوة بالأنغام ، ويعطونهم أجوراً على ذلك ، بل من الغريب أنّ بعض القبط يفعلون ذلك .

« ومن عاداتهم في السلام أنه اذا دخل الداخل يقف له جميع الحاضرين فيشير بيده للسلام هاوياً بها نحو الأرض ويرفعها الى رأسه ، فيجيبونه بنحو ذلك .. ولا يقع منهم التقبيل الاّ ليد العالم على ظهرها ، أو القادم من سفر : يُقبّل الداخل قابضاً يديه الى صدره ويقرّب خطاه منكّساً رأسه معجّلاً بالخطا حتى اذا لصق بالرئيس هوى الى الأرض كأنه يريد تقبيل رجله او ذيل سترته ، ويمسك الذيل ثم يجعل يده على فيه ثم جبينه . والمتواضع من الكبراء المسلّم عليهم يضم ذيله اليه كأنه ممتنع من ذلك ويقول : استغفر الله ، استغفر الله ، وغيرهم لا يفعل ذلك . [١] »

ولفت نظر بيرم التونسي كثرة الشحاذين في القاهرة ومصر فقال : ويوجد عندهم السؤال الملحّون الملحفون حتى

---

(١) صفوة الاعتبار ٤ – ١٢٢

إنهم إذا رأوا من أعطى سائلاً يكادون ان يسلبوه ثيابه غصباً من الالحاح . بل ربّما أضرّوه في بدنه . » ويشير التونسي أن من الأصلح أن لا يُعطي الانسان منهم الا سراً لمن يعلم انه محتاج حقاً . ويقول : اذ السؤال صار صناعة لتلك الفرقة ، ولهم رؤساء .. ولهم صنوف في الالحاح والتضرّع تفتّت القلوب ، ولم أر في البلاد مثلهم قط . [1]

ويشير بيرم الخامس الى ظاهرة الوسخ التي نوّه بها العبدري من قبل فيقول :

« ويغلب على الجميع الوسخ في الثياب وفي البيوت والديار ، الاّ بعض الأعيان ، ومن نحا النحو الفرنجي . واكثر ذلك في الفلاّحين وأصحاب القرى بل إنّ هؤلاء لا يستحيون من كشف العورة نساءً ورجالاً [2] »

ويتحدث بيرم الخامس عن الحرية التي يتمتع بها المصريون فيقول : وعلى الاجمال فأهل مصر لهم الحرية الشخصية فيما يرجع الى الديانات وشعائرها ، حتى صارت المنكرات جهراً ، ولا يقدر الأب على منع ابنته من مثل ذلك بالحكم اذا بلغت سناً معلوماً .

« أما الحرية السياسية وهي مشاركة العامة للحكومة في الرأي

---

(١) صفوة الاعتبار ٤ — ١٢٣

(٢) المصدر السابق . نفس الصحيفة

فالتحقيق انه غير موجود ، وإن كانت الصحف تتكلّم في السياسة لكنها مخصوصة بالسياسة الأجنبية . أما القــدح في تصرّفات الحكومة فهو ممنوع . [1] »

ولاحظ بيرم أن المصريين « قليلو الأسفار فلا تكاد تجد منهم خارج ممالكهم الا النادر . وكل من أقام بمصر من الغرباء ربح الربح الحسن من التجارة . [2] »

هذا ما استطعنا أن نطلع عليه من النصوص عن القاهرة في نظر المغاربة والاندلسيين . وتدور هذه النصوص حول ما يــلي :

١ ــ الاشادة بسعة ارض مصر ، وعظمة نيلها وأهرامها ، وما في القاهرة من سكان ومزارات وقبور وقصور ، وحدائق ، وازهار وثمار .

٢ ــ ذكر بعض كبار علمائها ، والتنويه بعلمهم او اتهام الآخرين بالجهل .

٣ ــ سوء معاملة المصريين لأهل المغرب دائماً ، سواء بما يلقونه في الجمارك من اهانة ، أو بما يوءخذ منهم ظلماً من أموال الزكاة ، او بإلقائهم في السجن .

٤ ــ نعت أهل مصر وديارهم بالوسخ وقلة النظافــة

(١) المصدر السابق ٤ ــ ١٢٤
(٢) المصدر السابق ٤ ــ ١٢٥

٥ ـ نقد أخلاق المصريين ونسبة العقوق اليهم واللؤم وقلة الوفاء ، والكذب ، والاستهانة بالأعراض ، والملق والنفاق ، والجبن ، والعبوديّة ، وبغضهم الغريب ، والبخل الشديد ، والغش ، والذل ، ورقة الدين ، وعدم حرمة المساجد ، وحب اللهو والطرب ، وظهور العواهر فيهم ، وانتشار المشعوذين وأصحاب الحيل بينهم .وأخذ موظفي المكوس الرشوة من المسافرين ، وميل المصريين الى البقاء في بلادهم ، وعدم جرأتهم على نقد تصرّفات الحكومة .

٦ ـ لا بد أن نذكر ، اخيراً ،ان غالب هذه المعايب وردت عند العبدري . ولقد رأينا أنه كان ساخطاً . فعينه الساخطة هي التي ابرزت له المعايب « وعين السخط تبدي المساويا » ولو كان راضياً لسكت عنها ولم يسجلها.


بغداد

أقل البلدان المشرقية حظاً من وصف المغاربة وأهل الأندلس هي بغداد . فالنصوص التي وصلت الينا عنها ، من هؤلاء ، قليلة جداً . رغم أن كثيرين من أهل الأندلس دخلوها ، او أقاموا بها ، وأخذوا العلم عن شيوخها ، أو اجتازوها قاصدين علماء خراسان لأخذ الحديث عنهم . وليس هنا مكان سرد أسمائهم ، فقد تحدث عنهم المقري في « نفح الطيب » ، في باب « من رحل من الأندلسيين الى المشرق . » ولا شك أن الذين زاروا القاهرة ودمشق من أهل المغرب كانوا أعظم عدداً من الذين زاروا منهم بغداد . فالقاهرة كانت ممر طبيعياً لأهل المغرب ، عندما يقصدون المشرق ، ودمشق أحيطت بكثير من ألوان القداسة والبركة والبطولة ، أما بغداد فكانت بعيدة ، لا تقصد إلا لعلمائها ، أو لتكون مرحلة في سفر طويل يهدف الى علماء الأقاليم النائية عنها . وعلى كثرة ما بحثنا عن النصوص المغربية أو الأندلسية المتعلقة ببغداد فإننا

لم نجد الا ما كتبه الادريسي وابن سعيد وبنيامين التطيلي وابن جبير وابن بطوطة .

واذا استثنينا بنيامين فإن ابن جبير كان أكثر أطناباً في ذكر بغداد ممن سبقه . فقد زارها سنة ٥٨٠ في خلافة الناصر لدين الله وسمّاها « هذه المدينة العتيقة » [١] وقد لفت نظره فيها أنه « قد ذهب أكثر رسمها ، ولم يبق منها الا شهير رسمها » . فهي « كالطلل الدارس ، والأثر الطامس ، أو تمثال الخيال الشاخص » . ولم يجد فيها حسَناً يستوقف النظر الا نهر دجلة .

ويقدم لنا وصف ابن جبير معلومات طبوغرافية عن بغداد في أيامه . فهو يذكر أن الجانب الغربي منها — أي ما هو غربي دجلة — قد عمه الخراب ، وكان معموراً من قبل ، وأن الجانب الشرقي معمور ، لكن عمارته محدثة . وفيه سبع عشرة محلّة يعدّد الكثير من أسمائها . ويصف دار الخلافة « قد اتخذ فيها المناظر المشرفة والقصور الرائقة والبساتين الأنيقة . » . ويقرّر ان الذي يعطي المُلْك في بغداد رونقه انما هم الفتيان والخصيان . ويصف الخليفة الناصر لدين الله فيقول : « أبصرنا هذا الخليفة المذكور .. بالجانب الغربي ، أمام منظرته به ، وقد انحدر عنها صاعداً في الزورق الى قصره بأعلى الجانب الشرقي على الشط . وهو في فتاءٍ من سنّه ، أشقر اللحية ، صغيرها .. حسن الشكل ، جميلُ المنظر ، أبيض اللون ،

---

(١) انظر رحلة ابن جبير (ط . بيروت) ص ١٩٣-٢٠٦ .

معتدل القامة ، رائق الرواء ، سنه نحو الخمس وعشرين سنة ، لابساً ثوباً أبيض ، شبه القباء ، برسوم ذهب فيه . وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوّقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيّمة المتخذة للّباس مما هو كالفنك وأشرف ، متعمداً بذلك زيّ الأتراك تعمية لشأنه ، لكن الشمس لا تخفى وإن سترت .. »

وهذا الوصف مهم ، ولعله الوصف الوحيد الدقيق الذي وصل الينا عن الناصر في ريعان شبابه .

ولاحظ ابن جبير أن الشرقية حفيلة الأسواق « تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم الا الله تعالى » وأن ببغداد احد عشر جامعاً ، ونقل عن أحد أشياخها أن فيها نحو الألفي حمام . وأن مدارسها نحو الثلاثين ، كلها بالشرقية « وما منها مدرسة الا ويقصر الوصف البديع عنها ، وأعظمها شهرة وأشهرها النظاميـــة » .

على أن هناك أمرين هامّين الحّ ابن جبير في التحدث عنهما . الأول مجالس الوعظ التي حضرها. فقد حضر مجلس رضي الدين القزويني ، وابن الجوزي . وأطنب في وصف مجالس ابن الجوزي اطناباً رائعاً حتى إنه نسب اليه الآيات والمعجزات فقال : « ومن أبهر آياته وأكبر معجزاته ..» وصف سيرته في وعظه ، وقد بلغ اعجابه الى أنه قال : « فلو لم نركب ثبج البحر ، ونعتسف مفازات القفر ، الا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة ، والوجهة المفلحة الناجحة ، والحمد لله على أن منّ بلقاء مَنْ تشهد الجمادات بفضله ،

ويضيق الوجود عن مثله .. » .

والمهم فيما ذكره ابن جبير أنه وصف مجالس ابن الجوزي الوعظية وصفاً حيّاً. وصفه حين يعظ، ووصف أثر وعظه في الناس عندما يستمعون اليه. وهذه صورة نادرة من حياة بغداد العلمية لا نجدها مفصلة في مكان آخر .

أما الأمر الثاني فهو وصفه أهل بغداد. فبعد أن وصف المدينة انتقل رأساً الى ذكر أهلها وما في أخلاقهم — على ما رآه — من مساويء. يقول :

« وأما أهلها فلا تكاد تلقي منهم إلاّ من يتصنّع بالتواضع رياءً، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء » .

« يزدرون الغرباء، ويُظهرون لمن دونهم الأنفَةَ والكبرياء يستصغرون عمّن سواهم الأحاديث والأنباء. قد تصوّر كل منهم في معتقده وخلده أنّ الوجود كلّه يصغر بالاضافة مبلده ،.. يسحبون اذيالهم أشَراً وبطرا، ولا يغيّرون في ذات الله مُنْكرا، يظنّون أن أسنى الفخار في سحب الازار ..

« لا تكاد تظفر من خواصّ أهلها بالورع العفيف، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها الا على من ثبت له الويل في سورة التطفيف ...

« فالغريب فيهم معدوم الإرفاق، متضاعف الانفاق، لا يجد من أهلها الا مَنْ يعامله بنفاق، أو يهشّ اليه هشَاشة انتفاع واسترفاق، كأنهم من التزام هذه الخلّة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم واتفاق ... »

على أن ابن‌جبير استثنى من هذه الصفات المذمومة فقهاء بغداد المحدّثين ووعّاظها المذكّرين. ولعل الأثر العميق الذي تركه ابن‌الجوزي في نفسه هو الذي دفعه الى تبرئة الوعّاظ والفقهاء مما ذمّ به عامة أهل بغداد .

ويجب أن نذكر ان ابن‌جبير دخل بغداد في الثالث من صفر سنة ثمانين وخمس مئة وتركها في الخامس عشر منه . فمقامه فيها كان قصيراً ، وبرغم ذلك فإن ما كتبه عن بغداد فيه كثير من الأصالة والشأن .

* * *

أما ابن سعيد فإن ما كتبه عن بغداد قليل . فهو يحدد موقعها ويذكر أن مبانيها بالقصب والطوب والكلس والجبس ، وأن هواءها يفسد مبانيها ، وأن الرخام يتشقق فيها من الحر ، وأن أرخص ما فيها التمر ، الذي يجلب من البصرة ، والأرز ، وقصب السكر ، ويجلبان من البطائح وجهات واسط ، وأن فيها التفاح القراطيسي ، والعنب الزراقي والليمون اليعقوبي ، والورق البغدادي والأقلام الواسطية ، وأن بضائع الهند تصل اليها في دجلة . »

* * *

(١) ابن سعيد ، بسط الارض ، ص ٩١

ننتقل الى ابن بطوطة الذي زار بغداد في سنة ٧٢٧ هـ في أيام السلطان ابي سعيد بهادرخان بن خدابنداه . بدأ كلامه بقوله : «مدينة السلام ، وحضرة الاسلام، ذات القدر الشريف والفضل المنيف . مثوى الخلفاء ومقر العلماء » ثم أردف ذلك بما قاله عنها ابن جبير قبل قرن ونصف قرن ، من خرابها وذهاب رسمها ، وبقاء اسمها . ثم وصف ما شاهده بنفسه.

فهو يذكر أن ببغداد، يومئذ، جسرين يعبرهما الناس ليلاً نهاراً ، وأن فيها احد عشر مسجداً تقام فيها الجمعة : ثمانية بالجانب الغربي ، وثلاثة بالجانب الشرقي . أما المساجد كثيرة ، وكذلك المدارس ، الا أنها خربت .

ويذكر أن حماماتها كثيرة بديعة ، اكثرها مطلي بالقار حتى ليخيل لرائيه أنه رخام أسود . وفي كل حمام خلوات ، مطلى نصف حائطها مما يلي الأرض به ، والنصف الأعلى مطلي بالجص الأبيض الناصع . ضدان مجتمعان .

ويصف دخول الانسان الى الحمام ، وما فيها من مياه حارة وباردة ، وما يعطاه الداخل والخارج من الفوط .. وقد أعجب ابن بطوطة بما رآه في هذه الحمامات فقال : « ولم أر هذا الاتقان كله في مدينة سوى بغداد ، وبعض البلاد تقاربها في ذلك . »

ووصف الجانب الغربي من بغداد : «وهو الآن خراب

---

(١) انظر الرحلة (ط . بيروت) ص ٢٢١ - ٢٣١

اكثره ... وقد بقي منه ثلاث عشرة محلة ، كل محلة كأنها مدينة بها الحمامان والثلاثة ، وفي ثمان منها المساجد الجامعة ... »

وعندما رأى الجانب الشرقي لاحظ أنه حافل الأسواق وأعظم هذه الأسواق سوق الثلاثاء ، فيه صناعات مختلفة كل صناعة على حدة . « وفي وسط هذا السوق النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تُضرب بحسنها ، وفي آخره المدرسة المستنصرية .. وبها المذاهب الأربعة ، لكل مذهب ايوان فيه المسجد ، وموضع التدريس وجلوس المدرّس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط . ويقعد المدرّس وعليه السكينة والوقار لابساً ثياب السواد ، معتماً . وعلى يمينه ويساره معيدان يُعيدان كلّ ما يمليه ، وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة .. »

وقد لقي ابن بطوطة في جامع الخليفة بالجهة الشرقية سراج الدين عمر بن علي القزويني . وسمع عليه جميع مسند الدارمي وسرد قبور الخلفاء العباسيّين الذين رآهم بالرصافة وقال : « وعلى كل قبر منها اسم صاحبه » .

ورأى قبر الامام أبي حنيفة « وعليه قبة عظيمة ، وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر » وأضاف : « وليس بمدينة بغداد اليوم زاوية يُطعم الطعام فيها ما عدا هذه الزاوية » . وذكر قبر الامام أحمد « ولا قبة عليه » ، وبالقرب منه قبر الشبلي ، والسقطي ، وبشر الحافي ، والجنيد وغيرهم .

ولاحظ أن لأهل بغداد يوماً في كل جمعة يزورون فيه شيخاً من هؤلاء المشايخ ويوماً آخر لشيخ آخر يليه هكذا الى آخر الاسبوع .

وقد انهى ابن بطوطة وصفه بغداد بذكر ملكها يومئذ سلطان العراقين وخراسان بوسعيد بن خدابنداه . اذ كان يومئذ ببغداد . يقول : « ورأيته ببغداد ، وهو شامل أجمل خلق الله صورة ، لا نباتَ بعارضيه » وقد خرج ابن بطوطة مع أحد أمراء الملك في سفره ، الى تبريز وكان الملك عائداً من العراق الى ايران . ووصف رحيل الملك ونزوله ، وكيفيّة تنقله وسفره .

* * *

وهكذا نرى أن ما وصل الينا عن بغداد من المغـاربة والأندلسيين قليل ، وأنه يتصل بوصف المدينة نفسها واخلاق أهلها وعلمائها ، على انه لا يشفي غلّة [1].

(١) لم يكن بين ايدينا عند كتابه هذا الفصل رحله بنيامين ، لذلك لم نستشهد بما قال ، ونصه مهم ، فليرجع اليه .

فهرس